ܒܝܬ ܟܬܒ̈ܐ

ܕܡܠܦܢܐ ܓܘܪܓܝܣ ܒܪ ܐܢܛܘܢ ܕܒܝܬ ܟܝܪܐܙ

Ex Libris

Beth Mardutho Library

The Malphono George Anton Kiraz Collection

ܟܠ ܐܢܫ ܕܫܩܠ ܠܗ ܠܟܬܒܐ ܗܢܐ ܡܢ ܒܝܬ ܐܪ̈ܟܐ
ܐܘ ܦܫܩ ܡܢܗ ܡܕܡ ܗܘܐ ܡܫܟܚܐ ܒܝܬ ܩܘܕ̈ܫܐ
ܘܢܗܘܐ ܡܢ ܒܢ̈ܝ ܡܠܘܟܐ ܘܫܒܪܐ ܕܢܦܫܗ ܢܦܠ ܐܘ
ܠܒܪ ܠܗ ܫܒܪܐ ܟܠ ܕܢܦܫܗ ܗܘܐ ܠܗ ܫܒܪܐ ܒܝܬ
ܠܡܫܠܡܘ ܒܪܬܐ ܕܢܦܩ ܠܗ ܠܕܘܟܬܗ܀

Anyone who asks for this volume, to read, collate, or copy from it, and who appropriates it to himself or herself, or cuts anything out of it, should realize that (s)he will have to give answer before God's awesome tribunal as if (s)he had robbed a sanctuary. Let such a person be held anathema and receive no forgiveness until the book is returned. So be it, Amen! And anyone who removes these anathemas, digitally or otherwise, shall himself receive them in double.

مكتبة
الشماس أفرام اسحق
حلب

ماذا في الإشحيم السرياني
عن مريم العذراء
وعن توبة الخاطئ ورحمة الله

اغناطيوس انطون الثاني حايك
بطريرك السريان الانطاكي السابق

مقدّمة

برسالتنا الراعوية التي نشرناها بتاريخ ١٥ آب ١٩٧٣ في الذكرى المئوية السادسة عشرة لوفاة مار افرام السرياني ملفان الكنيسة الجامعة، أتينا على نبذة عن حياة وفضائل أبينا وعنوان فخرنا الشاعر المريمي الأول في كنيسة الله وأذعنا القليل من تعاليمه التي اقتطفناها من مداريشه الواردة في الفناقيت ومنها عن تلك التي شغف بها عن مريم العذراء (ص ٢١ ـ ٢٣).

ثم نشرنا بمناسبة السنة المريمية (٧ حزيران ١٩٨٧ ـ ١٥ آب ١٩٨٨) رسالة راعوية عن مريم العذراء في الطقس والتراث السريانيّين، والآن ننشر أهمّ ما جاء في الاشحيم السرياني فقط:

١ ـ عن مريم العذراء.

٢ ـ عن توبة الخاطئ ورحمة الله.

نرجو من القرّاء ألاّ يتعجّبوا من التعابير التي قد يكونون لم يألفوها، انها صلوات سريانيّة بسيطة معرّبة صادرة عن قلب متيّم بالله يحبّه حبًّا عظيمًا ولأنه يحبّه هذا الحبّ يأسف على اهانته ويذرف دموع التوبة طالبًا منه عفوه وغفرانه. ولكثرة تلك الصلوات الاستغفاريّة قال لي يومًا حبر من أحبار إخوتنا السريان الارثوذكس: هل نحن السريان مجبولون بالخطايا حتى ان صلواتنا محشوّة بطلب الصفح والغفران. ان هذا لفخرٌ للكنيسة الانطاكية السريانية، قد اعتقدت دائمًا «بأن الكنيسة تحوي في حضنها الخطأة، هي قدوسة وعليها ان تتطهر دومًا جادّة باستمرار الى التوبة والتجدّد» (نور الأمم، دستور عقائدي في الكنيسة ٨) وبأن امّنا الكنيسة التي يرشدها الروح القدس لا تنفكّ تحضّ أبناءها على التنقّي والتجدّد» (فرح ورجاء، دستور راعوي في الكنيسة وعالم اليوم ٤٣).

وكلّ مسيحيّ يتلو الصلاة الربّية التي علّمناها يسوع المسيح، أما يطلب كلّ مرّة يتلوها، الغفران من الله بعد ان غفر هو أيضًا للمسيء اليه.

إذا صلّيتم فقولوا:«أبانا الذي في السماوات... اغفرلنا ذنوبنا وخطايانا كما نحن ايضًا غفرنا لمن خطئ الينا (بحسب البسيطة فشيطتو (متى ٦:١٢ ولو ١١:٤). فطلب الغفران عن الخطايا يرافق الانسان حتى رقاده الأخير.

حرس الرب أبناء الكنيسة السريانية الانطاكية المسلوب لبّهم بجمال أمّهم والدة الله مريم العذراء وحرسهم بمحبّتهم له تعالى وباتّكالهم الدائم عليه وعلى رحمته اللامتناهية.

دير الراهبات الافراميات
بطحا ــ حريصا ٢٦ تشرين الثاني ٢٠٠١

اغناطيوس انطون الثاني حايك
بطريرك السريان الانطاكي السابق

مريم العذراء في الإشحيم السرياني

مقدّمة

بمناسبة السنة المريمية التي أعلنها البابا يوحنا بولس الثاني وامتدّت من ٧ حزيران ١٩٨٧ حتى ١٥ آب ١٩٨٨ وجّهنا رسالة راعوية إلى أبناء الأبرشيّات السريانية اللائذة بالكرسي الأنطاكي السرياني، ضمّنّاها الكثير من تراثنا في مريم العذراء، هذه الأمّ الحنونة والرؤوفة أمّ الله وأمّنا الحلوة اللذيذة. وقد استخدمنا الكثير ممّا جاء في كتب الفناقيت والقليل جدًّا ممّا جاء في الإشحيم والبيت كازو.

الفناقيت: هي كتب الصلاة الفرضية حسب طقس الكنيسة الأنطاكية السريانية التي تُتلى على مدار السنة في أيّام الآحاد والأعياد وتقع في ٧ مجلّدات طبعت على عهد البطريرك جرجس شلحت، في الموصل بمطبعة الآباء الدومينيكان من سنة ١٨٨٦ ـ ١٨٩٦ وكان المطران أقليميس يوسف داود قد أصلحها ورتّبها.

المجلّد الأول هو عموميّ طبع سنة ١٨٨٦؛ والثاني طبع سنة ١٨٨٦ أيضًا وهو الجزء الخريفي من أحد تقديس البيعة إلى الأحد التابع لعيد الميلاد (ويتضمّن الأعياد من ١ تشرين الثاني ـ ٢٧ كانون الأول)؛ والثالث طبع سنة ١٨٨٩ وهو الجزء الشتائي من الأحد التابع لعيد الختانة الى الأحد الواقع بعد جمعة الموتى الغرباء (ويتضمّن الأعياد من ١ كانون الثاني ـ ١٩ شباط)؛ والرابع طبع سنة ١٨٩١وهو الجزء الربيعي الأول من الأحد الأول من الصوم الى أحد الشعانين (ويتضمّن الأعياد من ٩ آذار ـ ٢٥ آذار)؛ والخامس طبع سنة ١٨٩٢ وهو الجزء الربيعي الثاني من اثنين أسبوع الحاش (الآلام) الى الأحد الجديد؛ والسادس طبع سنة ١٨٩٥ وهو

الجزء الصيفي الأول من الأحد الثاني بعد عيد القيامة الى الأحد السابع بعد عيد الفنطقسطي (ويتضمّن الأعياد من ١١نيسان ـ ٢٦ تموز)؛ والسابع طبع سنة ١٨٩٦ وهو الجزء الصيفي الثاني من الأحد الثامن بعد الفنطقسطي الى الأحد السابع بعد عيد الصليب (ويتضمّن الأعياد من ١ آب ـ ١٥ تشرين الأول).

والإشحيم يتضمّن الصلوات الطقسية للأيّام البسيطة التي لا يقع فيها عيد ولا ذكر لقديس. وللإشحيم ستّ طبعات. الأولى أنجزتها مطبعة انتشار الإيمان في روما عام ١٦٩٦ على عهد البطريرك بطرس شاهبادين؛ والثانية أنجزتها المطبعة عينها وأشرف على طبعها الخوري الياس أميرخان على عهد البطريرك ميخائيل جروه عام ١٧٨٧؛ والثالثة أخرجتها المطبعة عينها عام ١٨٥٣ على عهد البطريرك أنطون سمحيري؛ أمّا الرابعة فانجزتها مطبعة دير الشرفة عام ١٩٠٢ على عهد البطريرك أفرام رحماني؛ والخامسة أيضًا تمّ طبعها في دير الشرفة عام ١٩٣٧ على عهد البطريرك جبرائيل تبوني وتجدّدت الطبعة وهي السادسة في دير الشرفة عام ١٩٩٦ على عهدنا. وقد عرّب الإشحيم عام ١٩٦٥ الخور أسقف يوسف المنيّر (رئيس أساقفة دمشق سابقًا)، ثم جدّد طبعه عام ١٩٩٤. وفي هذه الطبعة عرّب أيضًا صلوات يوم أحد القيامة عن الإشحيم الذي طبعه البطريرك جبرائيل تبوني كما وعرّب الصلوات القصيرة التي تتلى أيام الآحاد والأعياد الربانية والصوم الأربعيني قبل المزامير والتسابيح.

والبيت كازو: أي الكنـــز أو المخزن هو مجموعة الأناشيد السريانية. أصدرت آخر طبعة منه مطبعة دير الشرفة عام ١٩٦٤ تحت عنوان: كتاب البيت كازو بحسب عادة المدرسة الأكليريكية للسريان الكاثوليك والمعروفة بالشرفة.

تقسيم الصلاة في الإشحيم

تقسم صلاة الإشحيم الفرضية الى سبعة أوقات عملاً بما جاء في المزمور ١١٩:١٦٤ «سبع مرّات في النهار سبّحتك على أحكام برّك»، هذه الأوقات هي الرمشو (المساء)، الستار (العشاء)، الليل، الصفرو (الصباح) والساعة الثالثة والسادسة والتاسعة وهذا بحسب التوقيت الروماني وتقابله الساعة التاسعة والثانية عشرة ظهرًا والثالثة بعد الظهر، بحسب توقيتنا الحاضر.

الصلوات المكرّسة في الإشحيم للعذراء مريم

يلذّ لنا أن نجمع من الإشحيم ما جاء عن العذراء أمّنا، الحوّاء الثانية التي أعطت الحياة والبركة إلى من أعطتهم حوّاء الأولى الموت واللعنة، إذ أنّ مريم ولدت للإنسان، وهي بتول، مخلّصه وفاديه وصديقه وأخاه يسوع المسيح ابن الله.

لصلوات الليل قومات ثلاث أولها مع السدرو[1] لوالدة الله هي مكرّسة لمريم العذراء ما عدا أيّام الجمعة الواقعة ما بين أحد القيامة وأحد تقديس البيعة ففي هذه الأيّام تكون القومة الأولى للصليب المقدّس.

وفي صباح يوم الأربعاء ومسائه فالسدرو الثاني هو لوالدة الله. وتكرّس للعذراء في صلوات كلّ صباح ومساء أربعة أبيات قبل العطرو (صلاة وجيزة تختم بها رتبة البخور أي رتبة الاستغفار) وأربعة أبيات بعده. والبيتان الأولان من الساعة السادسة هما لتكريم مريم العذراء.

---

١ السدرو أو الحسّاي هو صلاة استغفارية ودعاء، صلاة أنيقة وبديعة وشائقة المعاني. بدؤها الفروميون (المقدمة) تليها صلاة الاستغفار التي لا تتبدّل يتبعها السدرو. وفي هذه الأثناء يستخدم حرق البخور. والذي حلّى في وضع السدرات هو البطريرك يوحنا (+ ٦٤٩) المسمّى «صاحب السدرات».

وبما أنّ الكنيسة السريانية تعتبر يوم الأربعاء يوم العذراء ففي مسائه بعد صلاة الابتداء عقبو (بيت قصير يلي مباشرةً المزمور) لتكريم أمّ الله وبعد القوقليون (مزمور قصير مرتّل فيه تقطع الآية الى شطرين تتخلّلهما كلمة هاليلوية) عقبو أيضًا لتلك المزامير تتبعه ٤ أبيات وباعوث[1]. وفي صلاة الصباح بعد المزامير ١٤٨، ١٤٩، ١١٦ عقبو لمريم وبعد قوقليون عقبو آخر يتبعه السدرو لوالدة الله وأبيات أربعة وباعوث للعذراء. وفي كلّ يوم أربعاء تكرّس الساعة الثالثة كلّها لمريم. أمّا مساء يوم الجمعة فبعد السدرو العام عقبو لمن اختارها الله أمًّا له.

وأحيانًا بعد صلاة الابتداء في ليل وصباح بعض الأيّام توقّر العذراء ببضعة أبيات.

أمّا التعاظيم (المَوربه) الموجّهة الى العذراء فتصلّى كلّ يوم في صلاة الليل، أمّا أيّام الآحاد والأعياد فتتلى أيضًا صباحًا. ويسبق التعاظيم نشيد مريم لدى زيارتها لأليشباع «تعظّم نفسي الربّ...».

إن البيتين الأولين من التعاظيم هما لتوقير العذراء. ونحن استخدمنا في مقالاتنا ما طبع أيضًا من التعاظيم في الفنقيت العمومي وهو المجلّد الأول من ص ١٥ ـ ٣٨ ومن التخشفتات (الابتهالات) المنشورة في الفنقيت نفسه من ص ٧٧ ـ ١٢٤. والتخشفتات هي أناشيد نظمها المغرم بوالدة الإله القديس ربولا. وقد استخدمنا حرف **ف** للدلالة على الفنقيت العمومي.

---

١ الباعوث هو تركيبة شعرية لمار أفرام ومار يعقوب ومار بالاي تختم به عادة صلاة الفرض.

أعياد العذراء

للعذراء المجيدة عبادة وإكرام متميّزان في كنيستنا السريانية التي زيّنت السنة الطقسية بتسعة أعياد لها وهي:

١ ـ عيد تقدمتها الى الهيكل (٢١ تشرين الثاني).

٢ ـ عيد الحبل بها بلا دنس (٨ كانون الأول).

٣ ـ عيد تهنئتها بميلاد يسوع المسيح (٢٦ كانون الأول).

٤ ـ عيد والدة الله على الزرع (١٥ كانون الثاني).

٥ ـ عيد بشارتها (٢٥ آذار).

٦ ـ عيد والدة الله على السنبل (١٥ أيار).

٧ ـ عيد البيعة الأولى على اسم والدة الله (١٥ حزيران).

٨ ـ عيد انتقالها الى السماء (١٥ آب).

٩ ـ عيد ميلادها (٨ أيلول).

وهناك آحاد سابقة لعيد الميلاد مكرّسة لمريم أو تشيد بمدحها:

١ ـ أحد البشارة (الرابع من تلك الآحاد).

٢ ـ أحد زيارتها لنسيبتها أليشباع (الأحد الخامس).

٣ ـ أحد جليان يوسف (الأحد السابع) وآخر آية من إنجيل أحد النسبة «ويعقوب ولد يوسف زوج مريم التي ولد منها يسوع وهو الذي يقال له المسيح» (الأحد الثامن).

وعلاوة على هذه الأعياد هناك عيد يعرف بعيد الجفنة فيه يستغيث السريان بالبتول لتبارك حقولهم وكرومهم ويقع هذا العيد في يوم عيد انتقال السيدة الى السماء أي في شهر آب.

الكنائس المشيّدة على اسم العذراء

على اسم العذراء شيّدت المعابد والكنائس وأنشئت الأديرة والأخويات. من تلك الكنائس: كاتدرائية ماردين على اسم الحبل بلا دنس، وكاتدرائية بيروت على اسم سيّدة البشارة التي بنيناها وكرّسناها نحن، وكاتدرائية حلب على اسم سيّدة الانتقال التي شيّدناها وكرّسناها نحن أيضًا، وكاتدرائية الحسكة على اسم سيّدة الانتقال، وكاتدرائية بغداد على اسم سيّدة النجاة، وكاتدرائية الموصل على اسم الطاهرة، وكاتدرائية القاهرة على اسم سيّدة الوردية، وكنيسة دير الشرفة على اسم سيّدة النجاة، وكنيسة الوكالة في روما على اسم الحبل بلا دنس، وكنيسة أبرشيّة سيّدة النجاة في أمريكا الشمالية على اسم سيّدة النجاة، وكنيسة زيدل (أبرشية حمص) على اسم سيّدة النجاة وكرّسناها نحن، وكنيسة سان هاسنتو في ضواحي مراكاي (فنـــزويلا) على اسم سيّدة الانتقال، وقد وضعنا لها الحجر الأول ثمّ عدنا وكرّسناها بعد أن تمّ بناؤها بهمّة وتفاني الخور أسقف أنطوان شهدا. هذا علاوة على المعابد والكنائس الرعوية الكثيرة المنتشرة في مختلف أنحاء البطريركية السريانية والمشيّدة على اسم أمّنا العذراء.

وفي كنيستنا رهبانية أفرامية للنساء تحت حماية أمّ الرحمة أسّسها السعيد الذكر البطريرك جبرائيل تبوني بمساعدة إحدى الراهبات الفرنسيسكانيات مرسلات مريم، المرحومة الأمّ ماري دي سانت أود التي بالرغم من الصعوبات الجمّة التي واجهتها تفانت في خدمة هذه الرهبانية التي رعيناها نحن ثلاثين سنة كبؤبؤ عيننا. فأسّسنا لهنّ رسالتين في سورية: بيت المحبة في الحسكة وبيت الفرح في زيدل ـ حمص، وبيتًا على اسم مار يوسف هو بيت الفتاة.

وقد تلطّف سيادة الأخ الجليل المطران يوسف المنيّر رئيس أساقفة دمشق

سابقًا واشترى لهنّ بيتًا في بغداد وأرضًا واسعة في قره قوش ـ الموصل ليبنى عليها بيت للرسالة.

ونحن نحثّ فتيات أبرشيّاتنا السريانية على الدخول في جمعيّة الراهبات الأفراميات بنات أمّ الرحمة ليعملن معًا في كرم الربّ عمل الرسل في الكنيسة.

سموّ مقام مريم وجمالها

إن مقام مريم وجمالها يفوقان كل وصف «لا يستطيع أحد أن يضاهي مريم إذ لا أحد أكبر منها ما خلا الله الذي لا أكبر منه» (مار انسلموس). وسبق داود الملك وتنبّأ عن البتول الممتلئة جمالاً وقال: قامت ابنة الملك بالمجد والقداسة واشتهى الملك حسنك فنـــزل وحلّ في حشاكِ (١٩٨)[1].

مريم هي فتاة بتول مختارة، هي أمّ بلا عيب، إنها حمامة بيضاء كالثلج معصومة من الخطيئة الأصليّة. عاشت على الأرض زنبقة فواحة نضرة نقيّة طاهرة غير مدنّسة، بقيت بعد أن ولدت المسيح كما كانت عليه قبل ولادته عذراء كالثلج الناصع البياض. مذهلٌ هو جمال مريم. إنه يفوق كلّ جمال أرضي وأنثوي. أصبحت ينبوع حياة وأسمى من الملائكة تلك التي يشار إليها باثنين وسبعين لسانًا في العالم (فنقيت ١ ص ٧٨)[2].

---

١ أي صفحة ١٩٨ من الطبعة الثانية للإشحيم الذي عرّبه المطران يوسف المنيّر رئيس أساقفة دمشق، ونحن استندنا الى هذه الطبعة في مقالنا هذا ووضعنا بين هلالين رقم الصفحة للنصوص، وقد استخدمنا أحيانًا تلك النصوص بتصرّف.

٢ هل يشار الى تلاميذ المسيح الاثنين والسبعين بشروا به؟ ــ سنستخدم الحرف (ف) للدلالة على الفنقيت، المجلد الأول.

جمال مريم فريد، فلبس بين العذارى والفتيات ولا في أجيال العالم ولا في الذهب الصافي ولا في الجمال الرائع مثل جمال مريم (١٦٦) وإزاء هذا الجمال تتحيّر العقول وينذهل الفكر (ف:١٩) ويبقى الإنسان متحيّرًا فيلتجئ الى ابن الله ليعطيه نطقًا ويغني كنّارته من موهبته حتى يرسم لوالدته صورة في غاية الحسن (١٠٨).

فإذا كان الملاك قد عجز عن تكريم تلك التي هي مملوءة قداسة، فمن أين للسان ترابي أن يكرّمها كما هي عليه (ف: ٨٤). ففمي أنا عاجز عن سرد خبر أمجادك أيّتها العذراء مريم، إن خبرك يفوق كل وصف ونطق فقد صرت أمّ سيّد البرايا قاطبة (١١٢) والفم أيضًا عاجز عن وصفك أيّتها الطاهرة الوديعة الممتلئة كمالاً وقداسة، المباركة في النساء، لأنه بك استؤصلت لعنة أمّنا الأولى عن الأرض وأبطل الحكم المبرم على بني آدم وحصلنا على الخلاص (١٩ و١٠٩). فأي لسان بشري قادر أن يمدحك أيتها البتول الطاهرة المملوءة من كل جمال (٥١) أو أن يتغنّى بتباجيلك أيّتها الممتلئة عجبًا، عاجزة هي عقول الجميع وعقول عظماء الأرض عن أن تحدق بك أيتها الممتلئة عجبًا، يا أيتها المزدانة بكل صلاح تقبّلي نيّتنا الصالحة يا من تعرفين حبّ الله المرتاح الى جمالك (ف: ٢٨ ـ ٢٩). وإذ ينذهل العقل البشري من جمال مريم يتساءل من هي هذه العذراء الواقفة بين اجيال العالم تمنع الظلام أن يخيّم على أرجائه؟ هي مريم المرسوم النهار على محيّاها والتي عندما تتكلّم تشرق الشمس من شفتيها. ونحن أيضًا نستطيع أن نقول أشياء كثيرة عن مريم العذراء، عن جمال نفسها وفضائلها وعن محبّتها الحارة لله. ولكننا نمدحها مدحًا أعظم إذا قلنا: كفى أن نقول عنك أيّتها العذراء الطوباويّة أنّكِ أمّ سيّدنا يسوع المسيح.

وكنيستنا السريانيّة تردد في صلواتها الكثير من فضائل مريم البتول، ومن ذلك أنها مباركة في النساء (ف: ٣٦) ومقصورة الروح القدس (٢١٨) الممتلئةنعمة

(٥١ وف: ٢٠) والوديعة (١٠) التي أبهجت السماويين والأرضيين بالمولود الذي أشرق منها (٢١٧ ـ ٢١٨) المملوءة محاسن المتواضعة (٢١٧) الممتلئة بركات (ف:١٥) غير المدنّسة الكليّة النقاوة (ف: ٣٦) الطاهرة المقدّسة (ف: ٣١) المباركة فخر المؤمنين وبهاؤهم ومجد جنسنا (ف: ٢١٠) الخ.

اختيار مريم أمّاً لله

لقد اختار الله مريم من قبل إنشاء العالم ليحقّق مخطط الخلاص الذي قرّرته عنايته[1]. ونحن ننشد في مساء كل سبت قائلين: يا ابنة داود ويا ابنة ابراهيم التي انتخبها الله منذ البدء (١٨٩) واختارها الآب منذ البدء أمّاً لابنه (٨٩ و١٩٣) فلذا كانت مريم مباركة منذ بدء حياتها. وعصمها الله من الخطيئة الأصليّة منذ بدء حياتها. إنها الجليلة في النساء، الممتلئة حسنًا، إنها البرارة التي لم تدنّس والفتاة البهيّة المفعمة جمالاً (١٥١). فلما أصبحت يتيمة بعد موت والديها يوياقيم وحنة نقلها الكهنة الى بيت المقدس وربّوها وفقًا لأمر موسى (١٨١) فترعرعت في بيت الله على مائدته بخبز البنين (١٨٥). هذه الفتاة مريم اصطفاها الآب لتكون أمًّا لابنه واصطفاها ابن الله المسيح من بين كل أجيال الخليقة واتّخذ له منها جسدًا وظهر على الأرض مثل إنسان متألّم، هو الله (١٣٨).

واجباتنا نحو مريم

هذه الأم البتول الطاهرة المتواضعة الوديعة الممتلئة نعمًا وبركات أمّ الله وأمّنا علينا واجبات نحوها، ومن تلك الواجبات أن نكرّمها ونمجّدها ونبجّلها لأنها ولدت بنوع لا يفسّر كلمة الآب الأزلي وأرضعت الحليب من يقوت البرايا كلّها

---

١ عن صلاة التي وضعها البابا يوحنا بولس الثاني للسنة المريمية (٧ حزيران ١٩٨٧ ــ ١٥ آب ١٩٨٨).

(ف: ٢٦ ـ ٢٧). فالآب السماوي هو أوّل من كرّمها وعظّمها إذ اختارها أمًّا لابنه الوحيد وبجّل عريسُها الروح القدس يوم ذكرها وعظّمه (٩٠) وابنها يسوع المسيح الذي تنازل وصار إنسانًا عظّم وكرّم ذكر أمّه في الأقطار الأربعة من أقاصي الأرض الى أقاصيها وأنار العالم بأسره (٨٠ وف: ٢٨). فينذهل الإنسان لقاء هذا ويهتف قائلاً: من لا يعظّم ذكرك... يا مريم أمّ الله (ف: ٨٠) ويصرخ: فليغبّط مريم من له فم ولسان ونطق فهي تستحق الغبطة (٨٩). ويهنّئها بقوله: سعدًا لك يا بنت الأبرار يا أمّ الله لقد نلت رحمة ووجدت حظوة وحملت الله فبجّل ذكرك في السماء وعلى الأرض (١٦٦).

حيرة الإنسان أمام عظمة مريم

ويقف الإنسان حائرًا أمام عظمة مريم ويصفها قائلاً: من يستطيع أن يمجّد بتوليّتك أيّتها البتول الطاهرة المجيدة والدة الإله الأمّ غير المتزوّجة الممتلئة محاسن أمّ النور (ف: ٢٨). إنكِ أنتِ وحدكِ والدة الله يا مريم التي صارت بمحاسنها أمّ سيّد الملوك (٢٠٩ وف: ٩٠) وصارت نفس تلك النقيّة والبهيّة الجسم مستودع الأقداس وحوى حشاها بأعجوبة الإله غير المحدود (٢٠٩) حين بشّرها الملاك وقال لها: السلام عليك يا ممتلئة نعمة الربّ معك، ومنك سيظهر الذي عظّم وكرّم ذكرها ها هنا وفوق في السماء (٩٥) وخلّص بمولده الشعوب من الضلال (١٧١). فكلّ الأجيال تعطيها الطوبى بحسب قولها، لأن كلمة الآب الأزلي السامي في الأعالي المتعالية الى أبد الآبدين استقرّ في حشاها وولدته (٢١٠ ف: ٢٧) هو الذي أنار العالم بأسره (ف: ٢٨).

ابتهاج البرايا بمريم

إن البرايا بأسرها تبتهج وتنشد المجد للآب الذي اختار مريم وكرّم وعظّم يوم تذكارها البهي (١٦٤) والأجيال كلّها تعطيها الطوبى لأن المولود منها قدّسها وظهر منها طوباها... إن غبطتها أعظم من غبطة الطوباويين (١٧١).

فلذا، يتنادى العقلاء ليبجّلوا بحبّ سامٍ وإيمان يوم تذكار الطوباويّة مريم (١٩٣) ويتبادر الجميع ليمجّدوا والدة الله البتول ويسجدوا ويسبّحوا الذي ولد منها بالجسد (ف: ٢٨) ويتسابق المسيحيّون لتهنئة مريم التي اغتنت بابن ربّها... وتتغنّى الشعوب كلّها بمدائحها وقد قالت: تعطيني الطوبى جميع الأجيال وتعطي الطوبى لمن تحمله (٢١٧). وإذا نقرت العذارى العبرانيات الدفوف حين انتصر داود الملك فالبشر والملائكة يرتّلون في يوم تذكار مريم المجد والشكر للابن الذي ولد منها (٨٣ ـ ٨٤).

ونختم بما تصلّيه كنيستنا السريانيّة في القومة الأولى من ليل الثلاثاء: أيّتها الطوباويّة ما أبهى يوم تذكارك وما أجمل يوم عيدك في الأقطار كلّها. فالبيع والأديار ترتّل الحمد ويفرح البحر والبر ويسبّحان الساهر الذي أيقظنا من رقادنا وأهّلنا في عيدك لنرتّل له، فالشكر له من كلّ الأفواه التي في السماء والتي على الأرض... يا مريم اسمك معظّم في الأقطار الأربعة ومن ترى لا يعظّم ذكرك طالما المسيح عظّمك (١٠٩).

بشارة الملاك جبرائيل للعذراء

بعد أن عصى أبوانا الأولان أمر الله طردا من جنة عدن، لكن الرب برحمته الإلهية قرر أن يعيدهما الى صداقته فوعدهما بمخلّص. هذا المخلص حبلت به مريم

العذراء المتواضعة بقوة الروح القدس وولدته في مغارة بيت لحم. يقول القديس برنردوس «إن مريم، ولا ريب، نالت حظوة لدى الرب ونالت رضاه لأنها طاهرة، غير أنها لم تحبل بيسوع المسيح إلاّ لأنها متواضعة». وعبّرت عن ذلك خير تعبير العذراء نفسها في نشيدها عند زيارتها اليشباع «نظر الى تواضع أمته القوي والقدوس اسمه» هو الرب معظم المتواضعين.

ما أجمل ما جاء في هذا الصدد في طلبة مار يعقوب بصلوات الساعة الثالثة من يوم الأربعاء «أقول وأنا مندهش اندهاشًا من المقام السامي الذي ارتفعت إليه مريم بنت السفليين (الأرضيين). فهل النعمة هي التي استمالت إليها الابن أم هل هي حسنت لأن تكون أمّ ابن الله؟ من الواضح أن الله انحدر الى الأرض بنعمة منه فاقتبلته مريم لطهرها الفائق. فلقد رأى تواضعها ووداعتها فحلّ بها إذ يطيب للقدوس أن يسكن في المتواضعين. فبِمن يا ترى أسكن، يقول الله، إلاّ في الودعاء والمتواضعين، وتطلّع فرأى أنها هي المتواضعة ما بين المواليد وأنه منذ البدء لم يتّضع أحد قط مثل مريم فجلّي أنه لم يرتفع أحد مثلها» (١٤٠). وفي ليل الجمعة وفي القومة الأولى التي لوالدة الإله[١] نصلي «المجد للعليّ الذي ترك الأعالي وكل الروائع وفي تواضعه حلّ بالمتواضعة ابنة المساكين» (١٧٢).

اختار الله الآب مريم لتواضعها كي تكون أمًّا لوحيده المخلص الموعود به، فكتب رسالة سلام لم يسجّلها قلم ولم يخطّها مداد بعث بها مع الملاك الى مريم العذراء. ولما تحرّك لاهوت ابن الله لينحدر إلينا ويلبس جسد ناسوتنا تخطّى جبرائيل الصفوف والطغمات النارية وطار كالبرق الشديد على جناحي الريح من البلاط السماوي الى الناصرة مدينة في الجليل، الى مريم وكانت قائمة تصلّي. طرح عليها

---

١ تتلى هذه القومة من أحد تقديس البيعة حتى أحد القيامة. أما القومة الأولى الأخرى التي هي للصليب فتتلى من أحد القيامة حتى أحد تقديس البيعة.

السلام قال لها ذاك النوراني: السلام عليك يا ممتلئة نعمة، أيتها المباركة في النساء، الرب معك، إنك ستحبلين وتلدين في بتوليّتك حامل البرايا بأسرها ومخلّصها ذاك الّذي لا فناء لملكه من الآن والى الأبد. وتمت هذه البشارة في شهر نيسان (وتم الميلاد في كانون الثاني)[1]. فلما سمعت الطوباوية هذا السلام غير العادي اعتراها خوف شديد وفكرت فيه وفي مصدره وأخذت تقول بوداعة لجبرائيل رئيس الملائكة: صعب عليّ أن أصدّق ما تقول إذ كيف يكون ما تبشّرني به، متى؟ وكيف؟ إنك تبشّرني بابن وأنا لا أميل الى الزواج، أسمع بحبل وأنا لا أرغب في الاقتران، وهل سمع أن عذراء تحبل دون أن تعرف رجلاً؟ فقال لها الملاك: يا ممتلئة حسنًا لا تخافي، أراد الرب أن تكوني أمّاً لوحيده، وهوذا منذ الآن تحبلين حبلاً ملؤه العجب وتلدين ولدًا هو بكر الآب ولا انقضاء لملكه. إن الروح القدس يأتي إليك وقوّة العليّ تحلّ وتستقر بك فتلدين ولدًا عجيبًا يخلّص البرايا بمولده. فلمّا تبيّن لمريم أن القويّ حلّ بها فتحت فاها وقالت لجبرائيل هاءنذا أمة ربّك فليكن لي كقولك، ومبارك المسيح الذي افتقدنا وحرّرنا من اللعنة، فوسعه حشا مريم واتضع سبحانه فصار إنسانًا (٩٥، ٩٩، ١٠٣، ١٠٩، ١١٧، ١٢٠، ١٢٨، ١٢٩، ١٤٣، ١٤٤،١٥١، ١٧١، ١٩٣، ١٩٨، ٢١٨).

وتتوجّه الكنيسة وهي جذلة تقول لها: يا أم الله، انذهل جبرائيل ببتوليّتك فكتف يديه وخرّ ساجدًا لك وسلّم عليك، فلقد تبيّن له أن سيّده حالّ بكِ وأنت مثل المركبة تحملين حامل البرايا (١٠٣) ويهتف إليها السماويون والأرضيون وقد غمرهم الفرح طوباك يا مريم، طوباك فقد أصبحت مقصورة مزينة دخلها الله وحلّ

١ في كنيستنا السريانية كان يقع عيد البشارة في شهر نيسان وعيد الميلاد بعد تسعة أشهر أي في شهر كانون الثاني. ولذا فالكاهن السرياني صلّى وما زال يصلّي صباح كل ثلاثاء في الإشحيم (١١٧) ويقول:«بشّر جبرائيل في نيسان وعاينّا ميلادك في كانون، أيها المولود المجيد من الآب، ويا ثمرة مريم الشهية. إن البرايا أكتت منها وعاشت بها الى الأبد».

بك فصرتِ أم ربنا (٢٠٠) يستطيع كل إنسان أن يسأل العذراء الأم: قولي لي يا مريم السحابة السريعة كيف حملت جبار العالم، فتردّ عليه بمختصر الكلام إن جبرائيل قدم إليّ وبشّرني قائلاً: سيشرق مخلّص العالم من حشاك وإنه لمخلّص العالم حقًا (١١٤ ـ ١١٥).

وحبلت مريم بقوّة الروح القدس

على اثر بشارة الملاك جبرائيل للعذراء مريم نزل (ابن الله) الى مستودع البتول مثل المطر الهادئ ودخل من أذنها دون أن تحسّ به وخرج منها دون أن يفضّ بكارتها (١٦٤) هكذا عبّر آباؤنا السريان عن إيمانهم بأن مريم حبلت وولدت دون أن تعرف رجلاً. لأن الذي يملأ السماء والأرض «سندتني قوته وزارتني إرادته فحملت وولدت الطفل الأقدم من الدهور فافتدى البرايا» (١٤٠ و١٢٥). فاقتبلته مريم بالأذن وحملته بالبطن (١٢٣) تسعة أشهر (١٣٣) كسائر الأطفال وأشرق منها ولم يفض بكارتها (ف: ١٠٠ ـ ١٠١) لقد تواضع ابن الله الكلمة حبًّا بنا ونزل الى مريم واتخذ جسدًا من طهارتها لينقذ آدم الذي سقط من العلى بمشورة العدو (ف: ١٠٩ ـ ١١٠) وفي هذا المصدر عينه (١٠٠ ـ ١٠١) يكتب أحد آبائنا «إن المسيح الختن تحرك من العُلى ليأتي الى الأرض، لينـــزل ويخلص صورة آدم التي بليت بالجحيم ويخلّصه وذريته من عبودية الخطيئة (١٨٥ ـ ١٨٦) فحبلت مريم بيسوع من الروح القدس دون زواج وولدته ميلادًا عجيبًا دون زرع بشري» (١٣٨ ـ ١٣٩).

وتتساءل الكنيسة «من هي البتول التي حبلت دون زواج؟ فتعطى هذا الجواب: إنها هي مريم التي تنبّأ عنها أشعيا بقوله: ها إن العذراء تحمل وتلد ولدًا كله عجب» (١٥٦).

وبمن حبلت مريم

حبلت مريم بمن السماء مملوءة منه والأرض صغيرة لجلاله (١٧٨) إنه الأقدم من الدهور (١٢٥، ١٢٨، ١٤٠، ٢٣٥) حامل العلا والعمق الذي جزع منه جبل سينا (١٣٤) وازن الجبال الجبار (١٢٨) مدبّر الأقطار (١٢٢) فادي البرايا بأسرها (١٥٨) حامل البرايا الذي تخدمه الملائكة... وتناغيه مريم هو الذي علّم البشر النشيد (١٥١) سيد الأنبياء وتحمله النبية (العذراء) (١٥١) الغني الذي يُشبع جوع العالمين (١٣٦) ملك الملوك... مصوّر الأجنّة في الأحشاء (١٣٤) القدير المحتجب حامل السماء والأرض (٨٣).

وكنيستنا السريانية في صلوات الإشحيم تغدق بغزارة على العذراء أوصافًا كثيرة فتصفها بالمركبة الجسدية التي حملت حامل السماء والأرض، وبسماء تألقت فيها شمس البرارة، ومنديل اللاهوت (١٢٣) وسماء ثانية حملت ابن الله (١٧١ و ١٣٨) وسفينة مزينة حلّ بها التاجر (١٣٦) وهي حصن منيع اقتبلت مهندس العلى وحملته وهي محافظة على بتوليتها وولدته مع بقاء طهارتها (١٣٦).

ونختم بما جاء في صلاة صباح الأربعاء «سبحان الآب القدوس الذي أرسل ابنه القدوس، فهبط وحل بالحشا النقي المقدس، وصار منا ومثلنا كي نصير مثله، صار بإرادته إنسانًا ليصيّرنا أبناء أبيه وشركاء الروح القدس» (١٣٦).

مريم البتول تلد الكلمة

تدعو الكنيسة السريانية أشعيا النبي الى أن يأخذ كنارته ويتنبّأ عن كيفية ظهور السيد الرب في المعمورة فيقول لها: ها إن العذراء تحبل وتلد ولدًا عجيبًا ويدعى اسمه عمانوئيل أي الله معنا (١٣٩) وهو يسوع مخلّص العالم (١٧٨). ولمّا

شاء ربّنا أن تصير الأمَة أمّاً له (١٢٣) تحرّك كلمة الآب وهبط من مساكنه العلوية وحلّ بالعذراء، فحبلت به وولدته وهي تفوق كل وصف (١٩٣). وكما سبقنا وقلنا عن حبل العذراء بالمسيح أنه كي يعبّر آباؤنا عن حبل العذراء مريم بدون أن تعرف رجلاً يقولون إن المسيح دخل في أذنها دون أن تشعر به وخرج منها دون أن يفضّ بكارتها (١٦٤)[1] فهكذا ارتدى الخفي المحتجب عن الكل جسمًا من البتول (١٨٠) ولما حان أوان ولادتها ولم يكن لها على الأرض لا بيت ولا مضجع ولا فراش لأنها معوزة، فكرت وأقرت بكل تواضع: إني فقيرة أقمّط الأقدم من الكل وأضع في المذود سيّد البرايا الذي لا شريك لأبيه في السماء ولا مثيل لأمه على الأرض هو السيد وأنا أمته (١٢٥). يا للعجب، إن الأمر ليحيّر العقول، قد حلّ الله الكلمة بحشا مريم تسعة أشهر ولم يفضّ بكارة أمّه عندما خرج منها (١٣٨) فسبحانه تعالى لأنه خرج من البطن دون إفساد البتولية (١٣٦)، ولدته البتول وبكارتها مصونة (١٨١). فيا أم العلي وفخر المسكونة إن كلمة الآب تجسّد منك وولد من طهارتك وحفظ بتوليتك (١٠٩) فلذا تغبطكِ الأجيال والشعوب لأنك استحقيتِ أن تكوني أم الله فأشرق منك دون أن يمسّ الأختام التي تقي بتوليتك (٩٦) فذكرك يا مريم لا يزول لأنك بتول طاهرة ولدت لنا وأنت بتول المسيح الملك الكائن الى أبد الآبدين ولا انقضاء لملكه (٨٤). فكل الرموز الغامضة بطلت بالحق الذي أشرق في المسكونة، إذ شوهد مخلصنا خارجًا من الأبواب المغلقة يوم ميلاده منكِ أيتها البتول والأم (ف: ١٧). طوباك يا مريم بنت داود التي استحقيتِ أن تكوني أمّاً لله وقد تجسّد منكِ (ف: ١٦). إنك فخر المعمورة يا والدة الله (٢٠٨) فمحروم كل من لا يصدّق أن مريم ولدت الله ميلادًا عجيبًا دون زرع بشري،

---

١ إن آباء كنيستنا السريانية وملافنتها ومعلّميها اعتقدوا دائمًا اعتقادًا متينًا ان مريم التي أرادها الآب السماوي أمّاً لابنه الحبيب هي بتول عذراء قبل ولادة الله الابن وفي ولادته وبعدها.

وكافر من لا يعترف أنه هو الله وابن الله. ولده الآب منذ الأزل وفي آخر الأزمنة أشرق من مريم فالمولود من الآب ومن مريم هو واحد ومسجود له (١٣٨ ـ ١٣٩) فالمجد له ولمرسله لأنه تواضع لأجل خلاصنا وأراد فصار إنسانًا خلّص جنسنا المائت من عبودية الخطيئة (١٣٦).

مريم البتول والدة الله الفادي

ولدت العذراء الله الكلمة، دخلها إلهًا وخرج منها إلهًا وإنسانًا (١٧٨) فهي والدة الله، ونحن السريان نصلّي في القومة الأولى من ليل الاثنين مع أبينا مار أفرام الشاعر المريمي الأول ونقول: «تصرخ عظامي من القبر إن مريم ولدت الله وإذا خامرني ريب فليرذلني الحق وإن وجد في لساني تبديل فليُرمَ بي في جهنم مع يهوذا (٨٨) لقد ارتفعتِ يا مريم الى العلا الذي لا يحدّه إنسان سبحان من اختاركِ وصار طفلاً في حشاكِ (٧٩) ومخلّصنا خرج من الأبواب المغلقة يوم ميلاده منك أيتها البتول الأم (ف: ١٧) وولدت لنا وهي مختومة ومصونة ومرضعة البكر الذي خلّص العالم (١٨٠) هو الذي شاء في محبته أن يظهر من البتول مريم على الأرض ليفتدي آدم وذريته (١٧٨). وتسأل كنيستنا مريم قائلة لها: ماذا أسمّيكِ يا بنت داود، لا أعلم، وبأي اسم أكنّيكِ، لا أدري. أأسمّيكِ بتولاً وهنالك ابن يرضع منك. اأسميكِ أمّاً وأنت بكارتك ثابتة. إني أدعوك إذاً والدة الله (٨٩) وتوجه مريم أيضًا الكلام الى ابنها وتقول له بعد أن ولدته: بنيّ لا أدري ماذا أسمّيك. أأسمّيك طفلاً وأنت أقدم من الدهور، أأسمّيك شيخًا وأنت وليد. إني سأسمّيك ضياءً أضاء من الآب وجاء فأنار البرايا كلها (١٥١) فالطوبى لي لأني ولدت من يسجد له ملوك الأرض وأربّي من بإشارته يدبّر الأقطار والأقاصي (١٦٤). وقد دعي في صلواتنا يسوع المسيح ابن الله وابن مريم بألقاب كثيرة، أهمّها هي: النسر القديم الأيام، عمانوئيل

الله (١٠٣) الولد العجيب (١٠٠ و١٣٩) الجبار الذي يزن الجبال (١٢٨) خبز الحياة الحقيقي (١٣٩) الشمس التي تنير البرايا (١٣٤) الوسيط بين الله والبشر والمتّشح باللهبة (١٣٩) الملك الذي لا انقضاء لملكه (١٥٦) يُناغى كالطفل الرضيع الأقدم من الدهور ويرتكض مثل الجنين ذاك الذي ارتكض يوحنا للقائه ويُحمل على الأذرع الشيخ القديم الأيام (١٥٨) الخ. ولكي تعبر مريم عما في نفسها من مشاعر الشكر لله على أنه اختارها أمّاً لابنه الحبيب قالت للعذارى رفيقاتها: كبير هو فرحي وسروري لأني أحمل حامل البرايا ذلك الذي تخدمه الملائكة والمتيقظون وأناغي ذلك الذي علّم البشر النشيد فصفوف النورانيين تحيط بجلاله وتهتف له قدّوس قدّوس قدّوس الرب ومبارك وقاره (١٥١).

مريم البتول بعد الولادة

بعد أن ولدت العذراء وهي محفوظة البكارة (١٨٠) الإله الذي صار طفلاً من أجلنا، وضعته في مذود (١٤٦) وكل من مرّ ببيت لحم سمع صوت مريم تناغي ابنها في المغارة وتقول له: طوبى لي يا بنيّ لأني صرت أمّك (٩٦) أنت قوّيتني فحملتك ولما ولدتك في المغارة بيّنت لي عزتك، إن اللهيب يحفّ بالمذود الصغير ويرفرف الساروفيم ذوو الستة الأجنحة فوقه فمرهم أن يرفعوا أجنحتهم لأدخل وأخرّ أمامك وأسجد لك وأرضعك حليبًا صافيًا يدرّ بإرادتك (١٢٥) فالذي تعجز السماوات عن إجلاله وترتجف منه الكاروبيم والساروفيم وهم في حضرة ابيه، طوباك يا أم الله، أنت ضممته بذراعيك وعانقته واحتضنته طفلاً وهو الأقدم من الدهور (٨٠) وإن الذي يعطي الجائعين خبزًا رضع الحليب كطفل والابن الذي لا بداية له شاء وصار له بداية وأتى للولادة وليس له نهاية (١٢٨) رضع وهو

رازق الكل (١٤٦) ومغذٍّ بإشارته البرايا بأسرها (١٠٠) والذي يوفّر الفيض في السحاب ويسكب الرذاذ على الأرض رضع قطرات الحليب من ثديي البتول مريم وملأ والدته عجبًا وهي تحمله (١٥٨) فتهتف كنيستنا إزاء هذا المشهد وتقول لمريم البتول: طوباكِ لأنكِ حملت جبار العالمين وحامل الأرض بإشارته الخفية وهو طفل وقبّلته وأحببته (١٧١) طوباكِ لأنك وضعت فمكِ الطاهر على شفتي ذلك الذي يحجب بحضرته الساروفيم وجوههم (١٧٢) طوباكِ لأنك بحليبك الصافي ربّيتِ الطفل الذي هو كالثدي الذي ترضع منه العوالم حياة ونورًا (١٧٢). عميق هو تفكير آبائنا في ما نحن بصدده، فكنيستنا السريانية تصلّي في صباح يوم الاثنين قائلة: من الآب أشرق لنا الرب ومن بنت داود أشرق لنا المخلّص ومن بيت لحم[1] أشرق خبز الحياة للأمم التي آمنت به فالسجود للآب الذي أرسل ابنه والتبريك لمريم والدته والطوبى للبيعة التي اقتبلته وهي تنشد له المجد (٩٦) وفي طلبة مار أفرام في آخر صلاة ليل السبت تعلن كنيستنا إيمانها بأن ابن الله المولود من الآب ميلادًا روحيًا ولدته البتول الطاهرة مريم ميلادًا جسديًا، حلّ بحشاها سريًّا وظهر منها علنًا وها إن ذكرها موقّر ومكرّم ومقدّس (١٩٦).

ونختم أنه بمجيء المخلّص عمّ الفرح الكائنات. قد اغتبطت مريم لأنها ولدته والمغارة لأنها اقتبلته والمذود الذي وُجد أهلاً لجلالته، فرح الرعاة لأنهم عاينوا مجد الملائكة الذين انحدروا من العلى الى العمق وفرحت السماء والأرض بالوليد الذي أمّن البرايا، فمبروك مولودكِ يا مريم (١٤٠). فلذا نشكر الثالوث الأقدس الذي صنع الإنسان على صورته ومثاله ووضعه في الفردوس الأرضي ولما عصى أمر خالقة طرده من الفردوس وبمحبّته الإلهية غير المتناهية وعده بمخلّص. فالمجد للآب

---

١ كلمة بيت لحم تعني بيت الخبز

الذي اصطفاكِ منذ البدء يا مريم البتول القديسة أمّاً لابنه والحمد لابنه يسوع الذي شاء وتجسّد منك وحلّ بحشاك وقدّسه والشكر للروح القدس الذي صنع منكِ خدرًا فانحدر وحلّ عليكِ (٨٩ ـ ٩٠ و١٤٠).

ونكرر هنا ما جاء في رسالتنا الراعوية عن مريم العذراء في الطقس والتراث السريانيَّين التي وجهناها بمناسبة السنة المريمية ٧ / ٧ / ١٩٨٧ ـ ١٥ / ٨ / ١٩٨٨ الى أبناء الأبرشيات السريانية اللائذة بالكرسي السرياني الإنطاكي، إن العذراء مريم التي ولدت لنا المخلّص، لا تهملنا ولا تنسانا بل هي باقية معنا وبيننا بعطفها وحنانها وبشفاعتها ومحبّتها. وإيماننا هذا يشعّ في هتافنا إليها حين نقول لها:«وإن كان جسمك بعيدًا عنّا أيتها البتول أمنا فصلواتكِ هي معنا في كل حين» (ف: ٩٧). إن هذا البيت الشهير هو قديم جدًا في كنيستنا ونتلوه مساء كل خميس في الإشحيم (٢٧٣ ـ ٢٧٤). هناك أيضًا صلاة ثانية مريمية قديمة جدًا ومن أصل سرياني وضعها مار رابولا في ابتهالاته بالقرن الخامس يتلوها المؤمنون في العالم أجمع، هي صلاة تحت ذيل حمايتك «استرينا يا والدة الله تحت أكناف شفاعتكِ من كل الآفات. فأنت ملاذنا ورجاؤنا الوطيد وانتعاش جميعنا، احمدي وأزيلي عنّا نيران الخصوم الذين يعادوننا من جراء شرّنا. وابلغي بنا أيتها الطوباوية الى منتهى شبيه بمنتهاكِ (ف: ٩٧) ولمار رابولا صلاة أخرى جاءت في الابتهال السادس: اطلبي أيتها القديسة لنا جميعًا المراحم من ابنك كيما يرضى عنا بصلواتك وينجّينا من الغضب ويسترنا تحت أكناف حمايتك ويُتكئنا على مائدة نعيمه ويمتّعنا بصحبتك في السعادة ويمنحنا بشفاعتك الأمن والسلام وينجّينا من مبغضينا حتى بشفاعتك لا نطلب إلاّ وحيدك الرب الذي عظّم ذكرك وبجلّ عيدك في كل أقطار المسكونة فمبارك من حرسنا بصلواتكِ (ف: ١٠٨ ـ ١٠٩).

الرموز والألقاب والتشابيه

على لسان الأنبياء وآبائنا السريان جاءَت رموز وألقاب وتشابيه عن والدة الله القديسة مريم الأم البتول التي ولدت ربّ الملوك وتمّت فيها الرموز والتشابيه والألقاب (ف: ٣٥) وإليكم أهمّها:

١ ـ مريم هي ينبوع الحياة ومعين الخلاص والحياة الروحية والأفراح والمسرات، لقد أعطتنا المسيح الذي هو الطريق والحق والحياة والفادي الذي بدمه استحق لنا الخلاص وأعاد لنا الحياة الروحية الفائقة الطبيعة التي خسرناها إمّا بالخطيئة الأصلية او الشخصية فامتلأت نفوسنا بالأفراح والمسرّات (١٥١ ف: ٢١ ـ ٢٢ و٧٨).

٢ ـ وهي السلّم التي رآها يعقوب البارّ في البرّيّة في حاران بحلمه، والسلّم كان منتصبًا على الأرض ورأسه يلامس السماء، وإذا ملائكة الله صاعدون نازلون عليه. إن مريم هي الشفيعة التي تصعد النفوس من الأرض الى العلى (ف: ٧٨ و ١٥، ٥١ و١٨٧ وطالع تك ٢٨: ١١ ـ ١٧).

٣ ـ وهي الحقل المبارك الذي أنبت لنا سنبل الأفراح (٥١، ٨٩ ف: ٧٨ و ٩٠).

٤ ـ وهي المركبة التي رآها في عين النبوءة حزقيال ابن السبي (طالع حز ١: ٤ ـ ٢٧) وصوّر بهذه الرؤيا التي كشفها له الله بأعجوبة، أمجاد العذراء بنت داود (١٥٨). لكن مريم هي أعظم بكثير من المركبة التي رآها حزقيال، فلهذه المركبة وجوه وعجَلات روحية أمّا مريم فلها فم يرتل المجد للرب، وركبتاها عَجَل وحملت في الحشا الجسدي مخلّص العالم (٨٩). ولا شبه بين المركبة التي رآها حزقيال وبين جمال مريم البتول القديسة. فالمركبة حملت رمزيًا ذلك الذي تخدمه الملائكة، أما

مريم فحملت سيد الملائكة، حامل السماء والأرض، حامل البرايا، الله الكلمة وولدته حقًا (٥١، ٨٩، ١٢٣، ٢١٠، ف: ٨١ و١٦). وفي النشيد الذي تتلوه كنيستنا السريانية في القومة الأولى من ليل يوم السبت تتوجّه الى البتول قائلة: المركبة التي رآها حزقيال النبي لا تشبهك. إن لها وجوهًا وعجلات وعيونًا دوّارة، أما أنت أيتها الطوباويّة فلك فم يرنم المجد لله (١٩٣).

٥ ـ وهي العليقة التي رآها موسى على جبل سينا (ط. خر ٣: ٢) ترمز الى مريم (١١٤، ١٦٢، ٢٠٩) وبها شبّهها موسى (٩٨، ١٠٩، ١٨٧). كانت العليقة تشتعل ولا تحترق (٧٨ ف: ١٥) إنها صورة لمريم البتول التي حلّ في حشاها الله فكما أنّ العلّيقة لم تحترق هكذا هي أيضًا لم تحترق من ناره (ف: ٢٥ ـ ٢٦). وبالعلّيقة التي تشتعل ولا تحترق أشار بعض الأنبياء الى بتوليّة مريم الحقيقية (٢١٧) الى البتول النقيّة لأنها ولدت بدون زرع، الله الخالق البرايا بأسرها (ف: ٣٤) الذي طاب له أن يولد منها دون أن يفضّ بكارتها (٩٥) ولأنها أزهرت في ملء الأزمنة وردًا، كما هو مكتوب، أي الثمرة التي أشرقت في حشاها (ف: ٣٤). ومار رابولا الهائم بالعذراء والدة الله نظّم لها أناشيد تعرف بالتخشفتات (الابتهالات) وخاطبها في الابتهال الرابع قائلاً: صوّرك موسى بن عمرام بالعليقة التي لا تحترق لأنك ولدت الأيل الغزّيل، الأيل هو المسيح كما دعاه سليمان. اشتعلت العليقة بالنار وورقها الجميل لم يحترق، وأنت أيتها البتول لم يُصَب جسدك بأذيّة من تلك النار المشتعلة (ف: ٩٥). فيا للنار التي بالعليقة اشتعلت ومنكِ أشرقت ولم تحترقي وذلك من قوّة ذاك الذي السماوات مملوءة منه (ف: ٢١) فولدت دون زرع الإله خالق البرايا بأسرها (٢١١ ـ ٢١٢).

٦ ـ وهي سماء: شبّه الآباء العذراء بالسماء، حقًا إنها سماء ثانية حملت ابن

الله (١٧١) حملت الله الكلمة (١٠٩) كلمة الآب السماوي الكلمة السرمدي (ف: ٨٢). فمن يستطيع أن يصف تلك الثمرة التي نزلت وحلّت في حشاكِ يا أم الله، فكنت سماء ثانية حلّ بكِ وسكن تسعة أشهر (ف: ٩٠). إن البتول مريم سماء حلّ سيّد الأعالي بحشاها (٨٩، ١٣٨) وتألّق فيها شمس البرارة (١٢٣) وأشرقت من حشاها الطاهر شمس البرّ فأنارت المسكونة وهزمت ظلام الضلال واسم هذه الشمس أقدم من العالمين فمبارك من أشرق منها (٢٠٤ ف: ٢١ وطالع رؤيا ٢١: ١).

٧ ـ وأطلق آباؤنا على العذراء مريم لقب السفينة. فقالوا إنها سفينة انحدر إليها التاجر وحلّ بها (١٣٦). إنها سفينة الحياة صار المسيح ملاّحها فانحدر إليها وحلّ بها (١٤٦) فحملت الحياة الجديدة (١٥١) لبني البشر (ف ١: ١١١) وأعطتنا كنــز الحياة (ف: ٢٠). إن مريم سفينة مزينة حاملة كنوزًا وذخائر (ف: ٢١ ـ ٢٢) وقد أقلّت وهي بنت الفقراء السعادة والكنوز من بيت الرب وأفرغتها في أرضنا المقفرة (٨٩).

٨ ـ واندهل آباؤنا من جمال مريم فدعوها مرجانة لا عيب فيها (١٣٨) ولؤلؤة بلا عيب (١٢٦، ف: ٣١). إن جمال مريم منبثق من بتوليتها، فهي لؤلؤة في بتوليتها (١٨٥) وجوهرة مغروسة في تاج الملك لا عيب فيها وحيثما اتجهت أضاء نورها مثل الشمس (٩٦).

٩ ـ ورمز آباؤنا السريان الى العذراء مريم بالحصن السماوي (ف: ٩٣) والمقدس الذي نزل إليه الملك وحل به (١٠٩ ـ ١٥١) حل به المسيح الملك (ف: ٢٠) ابن الملك (٢١٨) وملك الملوك (ف: ١١١). إن مريم لَحصن منيع اقتبلت مهندس العلى وحملته مع المحافظة على بتوليتها وولدته مع بقاء طهارتها (١٢٦). فلذا يطوبها السماويون والأرضيون قائلين: طوباكِ يا مريم، طوباكِ فقد أصبحت

حصنًا مكتملاً نزل الله إليكِ وحلّ بكِ فصرتِ أم ربِّنا (٢٠٠).

١٠ ـ مريم باب مغلق: شبه حزقيال (٤٤: ١ ـ ٥) البتول بالباب المُغلق الذي لم يُفتَح إلاّ للرب وحده (٢١٧) ولم يدخله غير ربنا الذي تواضع الى هذا الحد لكي يعيد آدم الى ميراثه (١٠٩، ١٢٩، ١٥٧). فلم يدخله أحد إلا الله الكلمة (٢٠٨) ربّ الكل لإنقاذ الشعوب من الضلال (ف: ١٥).

١١ ـ ومن الأنبياء مَن مثّل السر المجيد بالمنديل السليماني (٢١٧ ف: ٨٨) إنه منديل اللاهوت الذي رسم موسى أسراره (١٢٣) وهو منديل الروح الحاوي ماء الحياة (١٤١) وقد رشّ الحياة في طريق العالم (١٠٩).

١٢ ـ وأشعيا النبي (١٩: ١) سمى البتول غيمًا سريعًا (١١٤، ١٢٥، ٢٠٩ ف: ٢٤، ٨٧، ٩٨) لخالق كل البرايا (ف: ٨٢) غيمًا سريعًا يركبه الرب فتضطرب أوثان مصر من وجهه ويضطرب الشيطان والعالم والخطيئة من أمامه، وهذا الغيم السريع هو مملوء حياة (ف: ٢٩) وسأل الآباء مريمَ الغيمَ السريع: قولي لنا كيف حملت جبار العالم؟ قدم جبرائيل وبشرني قائلاً: سيشرق مخلّص العالم من حشاكِ وهو في الحقيقة يحمل العالم (١١٤ ـ ١١٥).

١٣ ـ مريم مثّلها أبوها النبي داود بتابوت العهد (١٨٧) الذي أعدّه موسى (١٢٥) وينشد لها مار رابولا بالابتهال الثالث: يا والدة الله، إنك تابوت العهد الذي فيه وعاء المنّ وعصا هارون التي أورقت (ف: ٨٧ ـ ٨٨). وكنيستنا السريانية تسلّم على مريم قائلة لها: السلام عليكِ يا تابوت العهد (ف: ٩٨) ولقد سبق الأنبياء وصوّروا مريم في أسرارهم المملوءة عجبًا بتابوت العهد (٢٠٩) المصنوع من الذهب الخالص ومن الأخشاب النفيسة (٢١٧) ويقول لها الملتجئون إليها:

إننا نعلم أيتها النقية أنكِ تابوت ثانٍ. ففي الأول وعاء المنّ والشريعة أمّا فيكِ أنتِ فالخبز السماوي المخلّص وواهب الحياة (ف: ٣٣). إن المنّ هو رمز للقربان المقدس خبز الحياة والواهب الحياة للعالم (ط. خر ٢٧: ١ تث ١٠: ٣ يو ٦: ٤٩ ـ ٥١).

١٤ ـ وصور الأنبياء مريم بعصا هارون (٢٠٩ وط. عدد ٣: ١٦) التي عادت فطريت وأورقت بالسر (١٢٦، ١٦٢) في قدس الأقداس (١٢٥) فيا والدة الله إنك عصا هارون التي أورقت (ف: ٨٨) فالسلام عليك (ف: ٢٤).

١٥ ـ وصوّروها أيضًا بجزاز الصوف (٢٠٩ وطالع قضاة ٦: ٣٧ ـ ٣٨) فمثلها آل جدعون بالجزاز والندى الساقط عليه (١٢٥، ١٤٠ ف: ٢٢) لأنها حلّت (صيَّرت حلوًا) السمّ الذي نفثته الحية من حسدها بين الأشجار وقتلت به البشر (١٤٠).

١٦ ـ وصورها اليشاع بالجرة الجديدة (١٢٥ ف: ٢٢) فالى البتول القديسة ترمز هذه الجرة (١٤٠) إن اليشاع كسر الأعداء بكسر الجرار ومريم بموت ابنها كان النصر لأبنائها على الشيطان والخطيئة.

١٧ ـ وسميت العذراء على ما جاء في نشيد الأناشيد (١٢: ٤) بالجنة المقفلة والمختومة جيدًا (١٥٦) وبالينبوع المختوم (١٢٩) وفي تلك الجنة محفوظة العصا البسيطة (١٥١) أشار بذلك الآباء السريان الى بتولية العذراء والى أنها ولدت دون زواج بشري ذلك الذي يسكب أنهار نعمه على مخلوقاته، ويسألون صاحب نشيد الأناشيد قائلين: أجل يا سليمان الفتى الجميل ما هي الجنة التي كنت تناغيها وهي مقفلة ومختومة جيدًا؟ فيجيب: هي مريم التي ظهر منها ذلك الغارس الذي غرس الفردوس (١٥٦).

١٨ ـ ويدعو السريان مريم بمسكن الله (١٥١، ١٧١) لقد صرت، يقولون، أيتها النقية غير المدنسة مسكنًا للمسيح الملك (ف: ٣٤) مسكنًا للواسع الذي لا يمكن أن يحتويه مكان (ف: ٧٧).

١٩ ـ وترمز بوضوح الى مريم الصخرة التي نبعت منها الأنهار في الصحراء، وأن الله ابنها الذي أشرق منها في المسكونة هو صخرة الحق كما قال بولس (١٩٨ وطالع ١ قور ١٠: ٤) ولقد جاء في المزمور ٧٨: ٢٠ ضرب (موسى) الصخرة فسالت المياه وفاضت السيول وفي المزمور ١٠٥: ٤١ فتح الصخرة فسالت المياه وجرت في القفار أنهارًا (ط. خر ١٧: ٥ ـ ٦) ومن هذه الصخرة الروحية يشرب المؤمنون نعم الله وآلاءه.

٢٠ ـ وسمى البتول النقية مار رابولا في الابتهال الأول مقصورة طاهرة لخالق الخليقة كلها (ف: ٧٧) ومقصورة جديدة نزل ملك الملوك وحلّ بها (ف: ١١١) ولما بشر الملاك مريم بأنها ستكون أمّاً لله طمأنها بأنها ستبقى بتولاً لأن روح القدس يحلّ عليها وبحلوله هذا أصبحت مقصورة لرب الخليقة.

٢١ ـ وكي يدل السريان على أن مريم حبلت بالمسيح دون أن تعرف رجلاً شبّهوا «بلسان ما رابولا» نزول المسيح إليها مثل نزول المطر الهادئ وطلبوا من داود النبي أن: قم وخذ كنارتك واكشف وفسّر بمزاميرك الجديدة الحدث المملوء عجبًا. كيف رأيت المسيح ربك وإلهك، إني لمحتاج أن أعرف منك هذا الأمر العجيب جدًا. فيجيب داود: رأيته كالمطر النازل على الأرض وكالرذاذ النازل على العشب، في سماء السماوات عرشه وسلطانه ممتدّ على الأقطار بأسرها ومريم البتول كانت له أمّاً. يا للعجب، حبلت به بدون زرع وولدته بدون زواج (ف: ١٢٠) وهكذا ظهر ابن الملك وحلّ في حشاها (ف: ٧٨ ـ ٧٩ وط. المزمور ٧٢: ٦).

٢٢ ـ ودرّة أخرى من درر مار رابولا وردت في الابتهال الرابع وهي: أن الحجرة التي انطلقت من مقلاع داود وقتلت جليات رمزت إليكِ أنت التي ولدتِ الضياء (الله الكلمة) الذي قتل الموت وسحق الحية بالصليب فتهاوت وصرعت (ف: ٩٥ ـ ٩٦ وط. ١ صم ١٧: ٤٩ ـ ٥١).

وقد أغدق آباؤنا على البتول مريم والدة الله الكثير من الألقاب والرموز والتشابيه التي أشرنا إليها وأخذناها من الإشحيم أما التعاظيم فمن الإشحيم والفنقيت ـ الجلد الأول ـ والابتهالات من الفنقيت عينه.

وفضلاً عما ورد منها في مقالنا نسرد ما جاء على لسانهم في هذا الصدد من المصادر عينها فدعوها: بنت آدم (ف: ١٠٠) بنت ابراهيم (١٨٩) بنت داود (١٥٠، ١٨٩ ف: ٩٩ ـ ١٠٠) بنت الأبرار (١٦١) الأم الممتلئة محاسن (ف: ٢٠) الممتلئة من كل المحاسن (٢١٧ ف: ٩٠) الفتاة البهية المفعمة جمالاً (١٥١) الممتلئة حسنًا (١٥١) المزينة بكل المحاسن (ف: ٢٩) الكلية المحاسن (٥٠) الممتلئة جمالاً (١٢٩) البتول الممتلئة جمالاً (١٩٨) الممتلئة جمالاً وقداسة (١٤٤) الطاهرة المجيدة الممتلئة حسنًا، النقية البهية في جسمها (٢٠٩) الممتلئة عجبًا (٢١١ ف: ٢٩ و٣٤) الطاهرة التي لا عيب فيها (٨٥) أكثر الناس طهرًا (١٤٠) البرارة التي لم تدنس (١٥١) ابنة الملك التي قامت بالمجد والقداسة واشتهى الملك حسنها (١٩٨ والمزمور ٤٥: ١٠) العروس الجليلة (ف: ٣٣) الممتلئة نعمة (١٥٦ ف: ٢٠) الممتلئة بركات (ف: ١٥) المباركة في النساء (ف: ١٠٥) غير المدنسة الطاهرة في كل شيء المباركة في النساء البتول مريم (ف ١: ٣٦) الطاهرة الوديعة الممتلئة كمالاً وقداسة المباركة في النساء (٨٩) الجليلة في النساء (١٥١) ممتلئة رحمة ونعمة (ف: ٨٢) وقداسة (ف: ٨٤) الممتلئة رحمة (١٢٩، ١٩٣) النبية التي حملت سيد الأنبياء

(١٥١ ــ ١٥٢) الأم غير المتزوجة (ف ١: ١٩ و٣٦) النقية الرفيعة التي لم تعرف زواجًا (ف: ٨١) علّة خلاص جنسنا المؤمن الناقلة إلينا الخيرات والمجدّدة عتقنا (ف: ٨٩ ــ ٩٠) ام الرب الإله وأمته (ف: ١٢١) مربية لذلك الذي بإشارته يدبّر الأقطار والأقاصي (١٦٤) مربية ملك الملوك (١٠٩) متمّمة أسرار الأنبياء (ف: ٢٥) تمّت فيك أيتها القديسة كل الأسرار والتشابيه النبوية (ف: ٣٥) أم ربنا يسوع (ف ١: ٩٩) أم مخلّص البرايا (ف: ٩٩) أم النور (٢٠٩ ف: ٩٨) أم النور الأزلي (٢١٠) أم سيد البرايا قاطبة (١٠٢) أم العلي (١٨١) حملت وقبّلت وأحبّت الطفل جبار العالمين وحامل الأرض بإشارته الخفية (١٧١) المستحقة الطوبى (٤٨) الأم الملتحفة بالغلبة (٤٧) الممجدة من كل الأجيال (٤٨) أعظم من الكاروبيم (ف: ٣٣) بهاء وفخر المؤمنين (٢١٠ ف: ٢٨ و٢٩) فخر المسيحيين الحقيقيين (٤٧) فخر المؤمنين (١٨٩) فخر العالم (ف: ٣٣) فخر المسكونة (٢٠٨) فخر المؤمنين وعزّة جنسنا (ف: ١٠٥) فخرنا وملجأنا (١٢٢) نور الجالسين في الظلمة (٢١٠) سور وملجأ المؤمنين ورجاؤهم المتّكل عليه المؤمنون (ف: ١٢٣).

ولقد شبه آباؤنا العذراء ونسيبتها اليشباع بجفنتين مغروستين في كرم الرب. فالخليقة تتنعّم بخمر عناقيدهما. الجفنتان هما مريم واليشباع والعنقودان هما المسيح ويوحنا، العريس (يسوع المسيح) والإشبين (يوحنا المعمدان) خطيب البيعة المقدسة (٢٠٠).

نختم بما جاء في الرتبة المكرسة لوالدة الله (٢١٧ ــ ٢١٨) «للمجيد الجليل الذي اختار لوقاره ابنة داود المتواضعة، للبهيّ الجبار الذي نظر الى تواضع أمته وجعلها خدرًا لعزته... أيها المسيح إلهنا، السور المنيع والذراع التي لا تقهر، يا ملك الملوك وسيد السادات، يا من لأجل خلاصنا أحب حقارتنا البشرية فحلّ بقداسته في حشا البتول وقد سبق الأنبياء فصوّروها بنفسها وجسدها، فمنهم من أشار الى

بتوليتها الحقيقة بالعليقة التي تتّقد ولا تحترق، ومنهم من شبّهها بقبة العهد المصنوعة من الذهب الخالص ومن الأخشاب النفيسة، الواحد مثّل السر المجيد بالمنديل السليماني والآخر بالباب الذي لم ينفتح إلاّ للرب وحده. وعليه أيتها الأم القديسة الممتلئة كل المحاسن، أيتها الوديعة المستحقة الطوبى التي أبهجت السماويين والأرضيين بالمولود الذي أشرق منك، إننا نتضرّع إليكِ فتشفّعي فينا الى المسيح الإله الذي ظهر منك لكي يمنحنا الأمن الدائم والسلام الوافر، ويهب المرضى والمتضايقين الشفاء التام، والمتوفّين على رجائه الذكر الصالح وذلك بنعمته ووفر رحمة أبيه وروحه القدوس الآن وكل أوان والى أبد الآبدين.

توبة الخاطئ ورحمة الله في الإشحيم السرياني

قبل ان نعرض ما جاء في الإشحيم السرياني عن رحمة الله واحتضانه الخاطئ التائب رأينا ان نقدم القليل ممّا جاء في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني وغيره عن هذا الموضوع.

سقطة الانسان

خلق الله الانسان على صورته... ونقصه عن الملائكة قليلاً وكلّله بالمجد والكرامة وسلّطه على أعمال يديه واخضع كل شيء تحت قدميه (مز ٨: ٥ _ ٧) وزيّنه بنفس عاقلة وحرّة... والحرّية الحقيقيّة هي في الانسان علامة مميّزة عن صورة الله فيه... لكن الشرير ومنذ بدء التاريخ أغوى الانسان، فأساء هذا استعمال حرّيته واقفًا في وجه الله (طالع فرح ورجاء ١٢، ١٣، ٢٩). فسقط في الخطيئة، والخطيئة هي اهانة لله وعار للشعوب (امثال ١٤: ٣٤) وسببٌ لكل الآلام والشرور والموت. وبعد خطيئة آدم الانسان الأول خطئ كل البشر، ما عدا مريم العذراء، «انه اذا قلنا اننا بلا خطيئة ضللنا أنفسنا و لم يكن الحقّ معنا» (١ يو ١: ٨).

نتائج الخطيئة

وللخطيئة نتائج وخيمة إنها تقوّض كل شيء، فإذا تفرّس الانسان في اعماق قلبه يكتشف انه ميّال الى الشرّ، تغمره ويلات كثيرة، لا يمكن ان تأتيه من خالقه لأن خالقه صالح، ويشعر بصراع دام بين الخير والشرّ، بين النور والظلمة (ط. فرح ورجاء ١٣) والخطيئة تضعف الانسان وتمنعه من ان ينال كماله، فيخدم الخليقة ويفضّلها على الخالق، وهي تجعل العقل مظلمًا وتقتل الضمير إذا اصبحت كعادة،

وانها تجرح حرية الانسان فيشعر بثورات جسدية، وتجعل السلام صعبًا، وتلقي الإنسان في الاستعباد فتُداس كرامة شخصيّته وحرّيته. وإن الخطيئة تتلف النشاط البشريّ وتخضع الانسان للموت الجسديّ الذي لم يكن الانسان ليخضع له لولا الخطيئة. (ط. فرح ورجاء ١٣، ١٨، ٣٧، ٤١، ٧٨) وأخيرًا تجلب الخطيئة الموت الروحي وتقتل النفس.

التكفير عن الخطيئة

لُيبعد الوثن عنهم غضب الآلهة ويأمنوا شرّهم لما ارتكبوا من آثام كانوا يتوضّأون بالماء أو يقدمون لهم ذبائح من أحسن ثمار الأرض أو من حيواناتها ومنهم من كان يحرق أولاده للغاية نفسها.

المسيح الفادي

لما عصى آدم في جنة عدن أمْرَ الله طُرد من الفردوس إلاّ أن الله وعده بمخلّص. وبما أن الانسان لا يستطيع من تلقاء نفسه أن ينتصر على الشرّ بل يحسّ كأنه مقيّد بالسلاسل ولا يمكنه ان يخلّص نفسه لأنه محدود والاهانة الموجّهة الى الله اللامحدود غير محدودة، شاءت الحكمة الإلهيّة أن ينــزل الكلمة ابن الله من السماء ليفدي البشريّة، فنــزل وعاش بيننا إلهًا كاملاً وانسانًا كاملاً ليكفّر بصفته إنسانًا عن خطيئة الانسان ولكونه إلهًا فتكفيره غير محدود. وهكذا افتدى الإنسان ورمّم في ذرّية آدم المثال الإلهيّ الذي شوّهته الخطيئة الأولى (فرح ورجاء ١٣، ٢٢). فالمسيح القدّوس البريء النقي (عبر ٧: ٢٦) الذي لم يعرف الخطيئة (٢ قور ٥: ٢١) أتى ليكفّر عن خطايا الشعب (عبر ٢: ١٧ ونور الأمم ٨) فكفّر عنها بآلامه الفادحة وموته الأليم على الصليب. ولّما كان عارفًا بضعف الإنسان وميله الى الشرّ

وارتكاب الخطيئة، فلكي يعيد الخاطئ الى الله ويصالحه معه ومع الكنيسة، أسّس سرّ التوبة عند ترائيه في مساء أحد القيامة لتلاميذه، فنفخ فيهم وقال لهم:«كما ارسلني الآب أنا أرسلكم. خذوا روح القدس. من غفرتم له خطاياه، غُفرت له. ومن امسكتموها عليه، أُمسكت» (يو ٢٠: ٢٢ _ ٢٣). والمجمع الفاتيكاني الثاني يلزم الكهنة بأن يتذكّروا كم لسرّ التوبة من جزيل الفائدة لتعزيز الحياة المسيحيّة... وبأن يدعوا بإلحاح الى التوبة والقداسة، وأنهم يصالحون بسرّ التوبة الخطأة مع الله ومع الكنيسة، ويدرّبونهم بروح المسيح الراعي على أن يضعوا خطاياهم بقلب منسحق تحت سلطان سرّ التوبة لكي يتوبوا أكثر فأكثر ويومًا بعد يوم الى الرب متذكّرين كلامه «توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات» (متى ٤: ١٧. ط. المسيح الرب ٣٠ والدرجة الكهنوتيّة ٤ _ ٥) «وإن اولئك الذين يتقدّمون من سرّ التوبة يقتبلون فيه من رحمة الله غفرانًا عن الإساءة التي ألحقوها به، ويتصالحون في الوقت عينه مع الكنيسة التي جرحوها بخطيئتهم والتي تسعى بمحبتها ومثالها وصلاتها في سبيل توبتهم» (نور الأمم ١١ والتعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية ١٤٢٢).

سرّ التوبة والمصالحة

السرّ الذي به يتصالح الخاطئ مع الله ومع الكنيسة يدعى:

١ _ سرّ الهداية والعودة الى الآب الذي ابتعد عنه الانسان بالخطيئة (ط. لو ١٥: ١٨)

٢ _ سرّ التوبة لأنه يكرّس المسعى الى الاهتداء والندامة والتكفير.

٣ _ سرّ الاعتراف لأن الإقرار بالخطيئة هو عنصر ضروريّ من عناصر هذا السر.

٤ _ سرّ المسامحة والصفح لأنه بالحلّة الكهنوتيّة يمنح الله الخاطئ العفو والسلام.

٥ _ سرّ المصالحة لأنه يعطي التائب محبة الله التي تُصالح. فكلّ من يحيا بمحبة الله الحنون الرحيم هو مستعدّ للعمل بموجب ارادة الله «اذهب أوّلاً وصالح أخاك»

(متى ٥: ٢٤). وبولس الرسول يقول في رسالته الثانية الى اهل قورنثية (٥: ٢٠) «ونحن نسألكم بدل المسيح: تصالحوا مع الله» (ط. ت م ك ك ١٤٢٣ ـ ١٤٢٤).

بما ان سرّ العماد المؤسّس لمغفرة الخطيئة الأصليّة وسائر الخطايا المرتكبة لا يتكرّر، فإذا ما خطئ الانسان بعد قبوله العماد «عليه أن يتعمّد من جديد ولكن بدموع الندامة» (مار برنردوس). فلهذه الدموع عفا الله عن داود، وعن المرأة الخاطئة الجاثية عند قدمي يسوع تبكي وتبلل رجليه بدموعها، وعن بطرس الذي أنكر المسيح صفح عنه المسيح للدموع التي سكبتها عيناه... ان الله طويل الأناة كثير الرحمة ونادم على الشرّ. «وإن نحن اعترفنا بخطايانا فهو أمين عادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهّرنا من كل إثم» (ا يو ١: ٩).

إنّما يجب أن ينسحق قلبنا على ما قدّمنا من خطايا «ارجعوا اليّ بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح. وشقّقوا قلوبكم لا ثيابكم واعطفوا الى الرب إلاهكم فإنه رحيم رأوف طويل الأناة» (يوئيل ٢: ١٢ ـ ١٣) والرب الاله لا يزدري القلب المنكسر المنسحق (ط. مز ٥١: ١٩). ومَثَل الابن الشاطر، لؤلؤة أمثال المسيح، خير دليل على رحمة الله في قبول الخاطئ العائد الى أبيه بقلب ممزّق حزنًا ومنسحق على ما ارتكب من خطايا كانت سبب حزن وألم لوالديه اللذين قبلاه بحبّ عظيم فأنقذا نفسه.

قيمة النفس وجمالها

النفس هي أثمن ما في العالم ومشتراة بدم إله؛ فنهر الدم الذي سال من قلب يسوع المطعون والمفتوح على الصليب ما زال يسيل على النفوس فيغسلها وينقّيها. فنفسك، ايها الانسان هي مرآة تعكس وجه الله المنير، فلا تجعلها سوداء قاتمة؛ إنها إناء ثمين فإيّاك أن تكسره؛ نفسك عود تعزف به يد الله أروع النغمات، فاحذر من

أن تُصدر أوتاره أصواتًا تخدّش الأسماع؛ إنها ينبوع ماءٍ شفّاف فلا تلوّثه؛ وهي وردة بيضاء كالثلج فلا تطرحها في الأوحال؛ نفسك هي مسكن للثالوث الاقدس، فاحذر من أن تُجلس على عرشها الشيطان عدوّ الله وعدوّك؛ أخيرًا نفسك هي الابن الحبيب العزيز على قلب الله فاحذر من أن يخطفها الشيطان ليزقّها في النار الجهنّميّة، بل سِرْ سيرة أبناء الله سيرة قداسة وطهارة.

وقد رأى كثير من القديسين في النفس سماء يقيم فيها الله. فالقديسة اليصابات المجريّة قالت: وجدتُ سمائي على الأرض. لأن السماء هي حيث موجود الله، والله يقيم في نفسي. وقال المسيح للقديسة مركريت ماري: اخترتُ نفسك لتكون سماءً لي على الأرض. واوريجانيس اعتبر كل انسان سماءً فقال: أنت سماء وماضٍ الى السماء. وكتب القديس اغوسطينوس: نحن سماء لأننا حاملون ربّ السماء. ويتوجّه كتاب الاقتداء بالمسيح الى الله ويقول: ربّ حيث أنت فهناك السماء (٣: ٥٩ عدد ١) والقديسة تريزيا الآفيلية كانت تُسحر وتُخطف بالروح لدى رؤيتها نفسًا نقيّة، إن نفسنا سماء صغيرة يسكنها خالق السماء والأرض. وقال القديس برنردوس: لا تسموها (النفس) سماويّة بل سماء. وهذه السماء لا نراها ويمكننا خسرانها. والأخت ماري de la Bouillerie من راهبات القلب الأقدس أثّر في نفسها يوم تناولها الأول، كلام الواعظ الذي قال للمتناولين إن جسدنا هو الذي يحجب عنا رؤية الله، والموت هو الذي يشقّ ذلك الحجاب. إني اؤثر، قال توما de Villeneuve، إني أؤثر أن أكون قد قتلت مئة شخص بحسب الجسد من أن أكون قد أرسلت نفسًا واحدةً الى جهنم.

الصلاة الطقسية

في مجموعة قوانين الكنائس الشرقية قانونان عن الصلاة الطقسيّة هما القانون ٣٤٦ والقانون ٣٧٧. فالقانون ٣٤٦ بند ٢ ثالثًا يحثّ الطلاّب الراغبين في الخدم المقدّسة على أن يتعلّموا إقامة الصلوات الطقسيّة باستمرار بحسب الطقس الخاص وأن يغذّوا بها حياتهم الروحية. والقانون ٣٧٧ يوجب على جميع الأكليريكيين أن يقيموا الصلوات الطقسيّة بحسب الشرع الخاص بكنيستهم. أما الشرع الخاص بكنيستنا الذي هيئناه وساعدنا في دراسته ثلاثة من اخوتنا الأجلاّء المطارنة مار اسطاثيوس يوسف المنير رئيس اساقفة دمشق سابقًا ومار باسيليوس موسى داود رئيس اساقفة حمص وحماه والنبك (اليوم رئيس مجمع الكنائس الشرقية) ومار غريغوريوس الياس طبي المعاون البطريركيّ ومطران ماردين شرفًا (اليوم رئيس اساقفة دمشق). ووافق على هذا الشرع الخاص آباء السينودوس المنعقد في دير سيدة النجاة بشرفة درعون من ٤ ــ ٨ ايار ١٩٩٩ وقد جاء فيه «يجب على جميع الأكليريكيين لكونهم رجال صلاة ويصلّون باسم الشعب أن يقيموا الصلوات الطقسيّة ويجب على الكهنة الأبرشيّين ان يتلوا أفراديًا او جماعيًا صلوات الفرض الإلهي أقلّه قسمًا منها مع تحريضهم على تلاوة باقي أجزاء الصلوات الفرضيّة الأخرى بقدر ما يستطيعون». وفي هذا المعنى جاء على لسان القديس يوحنا فم الذهب «إن الكاهن لكونه مرسلاً من الله عليه أن يصلّي لأجل المسكونة كلّها، ولكونه وسيطًا لدى الله فعليه أن يكون حليمًا، يرفق بخطايا نفوس الأحياء والأموات». ويقول القديس يوسف de Copertino في إصلاح الأكليروس «هل تريدون أن يكون الكهنة قديسين؟ اسعوا الى الحصول على شيئين: أن يصلّوا بتقوى صلاة الفرض وأن يقيموا بخشوع الذبيحة الالهيّة. وهذا كافٍ لخلاصهم».

وكنيستنا السريانية الانطاكية تستخدم للصلوات الطقسيّة: الإشحيم للأيّام البسيطة التي لا يقع فيها عيد ولا ذكرى قدّيس، وتستخدم الفناقيت لأيام الآحاد والأعياد[1].

ومن ميّزات الإشحيم «أنه مشوّق ومنشّط ومفيد، ينعش القلب ويرفع العقل، ويشدّد الإرادة ويثبّت العزيمة، ويطفئ من حدّة الأميال ويخمد ثورة الأهواء الدنيئة، ويرمي بالمرء النادم المسترحم المتودّد والمستعطف الشاكر المادح بين أحضان العليّ ويكشف له نقائصه وسيئاته، ويعرض عليه هفواته وزلاّته، ويبسط له مطالبه واحتياجاته، ويستمطر رضاه تعالى ومواهبه، وينعم بخيراته وبركاته...(١٩).

من ميزات الإشحيم[2]، نحن اقتصرنا على توبة الخاطئ ورحمة الله. في صباح ومساء كل يوم من ايام الاسبوع ١٦ بيتًا للتوبة (٤ + ٤ قبل العطر ٤ +٤ بعد صلاة العطر) وصلاة الستّار (العشاء) هي عمومًا للتوبة، والقومة الثالثة من صلاة الليل هي أيضًا للتوبة، ما عدا أيّام الأربعاء والجمعة والسبت فهي للأموات.

رحمة الله واحتضانه الخاطئ التائب

إنّ الله لا يريد أبدًا موت الخاطئ (١٤٨) وهو لا يؤدّبنا في غضبه. إن الله رحيم في كلّ حين ولا يشاء أن تهلك الصورة جبلة يديه (١٤٨) ولا يمنع عن الخاطئ رحمته إذا ما دعاه (٤٢) لأنه غزير الرحمة (٩٤) وحبّه وافر على الخطأة (١٢٧) وهو قابل التائبين (١٤٤)، ان الآب يصبر علينا حينما نخطأ والابن يقتبلنا عندما نتوب اليه والروح القدس لا يريد هلاك أحد (١٧٠) بل إنّ الله يحتملنا ويقيتنا بحنانه ويطيل أناته علينا لنعود إليه من غيّنا. ونحن الاشقياء لا نفكّر أبدًا بأنّ

١ طالع ما جاء عن الإشحيم والفناقيت ماجاء في ص ٤ و٥.

٢ تقسم الصلاة في الإشحيم الى سبعة اوقات طالع ص ٥ من هذا الكراس.

آخرة العالم على الأبواب قائمة (١٩١). ويهلع قلب الخاطئ ممّا قدّمت يداه ويفكّر في نفسه قائلاً: يعتريني الخوف من الآثام القبيحة التي اقترفتها، فيا الله، يا محبّ البشر اشفق عليّ في حنانك (١٠٨). وأشفق الله على الخاطئ، على الخروف الضال وخرج بطلبه. فيا أيّها الخاطئ لا تقنط من السير في طريق التوبة، فقد خرج ربّك بطلبك وسيفرح جدًّا إذا وجدك، فيمدّ لك يده كما مدّها لشمعون، ويتجاوز عن سيئاتك كما فعل مع الخاطئة، ويفتح لك باب الفردوس كما فتحه للّصّ، ويقتبلك ويسرّ بك أكثر من سروره بالموجودين ويحملك على منكبيه ويطوف بك ويقبّلك (١٠٦ ـ ١٠٧). إن الابن جاء الى العالم من أجل الأشرار (١٤٨) وعلى الصليب فتح جنبه للخطأة. وقد اصطاد، وهو جالس على البئر، السامريّة بواسطة الماء. طلب منها ماءً ليشرب فلم تُعطِه، أمّا هو ففجّر ينبوع ماء الحياة وأرواها، فتبارك الذي فتح جنبه للخطأة التائبين (١١٤) وتدفّقت موهبة الله على العالم وخلّصت من الغضب أهل نينوى الضارعين إليه (ط. ٩٤).

الاقرار والاستغاثة

كي يحنّ الله علينا ويغفر خطايانا يوجب علينا ان نقرّ بأننا خطأة، ويستغيث الخاطئ بالوعد الذي وعد به فم الله القدّوس أن ادعوا فأجيب واقرعوا فافتح لكم (٨٣). أقرّ داود بمعاصيه فاستجاب الله صلاته وتحنّن عليه وصفح عن ذنبه وأنعم عليه بالنبوءة (١٦٠) وبما أن باب مراحم الله مفتوح فلنبتهلنّ بخشوع الى الرب الرحمان ولا نضجرنّ من التضرع اليه فبابه مفتوح في كل حين ويجيب كل من يقرعه ولا يمنع مراحمه عن الخطأة الذي يدعونه فهو صالح رحيم (١٤٥) ويسوع المملوء رحمة بابه هو باب الرحمة فمن يدخله وهو مكبّل بالآثام يخرج منه محرّرًا منها (٩٢) ويبتهل الإنسان الى الله مردّدًا: يا رب افتح لنا باب مراحمك كما فتحته

للصّ وارتضِ بتوبتنا كما ارتضيت بتوبة العشّار وتلك الخاطئة واغفر ذنوبنا وخطايانا كما غفرت لشمعون بعدما أنكرك، فإنك انت الرب الرحيم وقابل التائبين الآتين إليك نادمين (١٤٤) واستعطافًا لله العادل يتوجّه إليه الخاطئ قائلاً: ايها الديّان العادل ارحمنا واصفح بوفرة نعمتك عن سيئاتنا فلقد تجاوزت عن ذنوب شمعون الذي كفر بك فأستغيث أنا بك فارحمني (١٢٢) ولأنّ الشيطان لا ولن يهدأ في تجربة الخاطئ يلتجئ هذا الى الله ويقول له: أثمتُ بإرادتي وتبت بإرادتي وعلّتي هي أنّ الشيطان سيأتي. فالويل لي لأني خطئت فيا قاضيًا عادلاً اشفق عليّ وارحمني (١١٦) الويل لي لأني اقترفت الزنى والسرقة والتجديف منذ حداثتي فأستغيث بك مثل الخاطئة وأتضرّع اليك مثل العشّار فيا أيّها الرحمان اشفق عليّ وارحمني (١٢٧) اللهم إننا نعرف أن ذنوبنا كثرت ونعرف أيضًا أن مراحمك أكثر فإذا كانت مراحمك لا تشفع فينا فلربّما نهلك بسبب شرورنا، يا رب يا رب لا تهملنا وقد افتديتنا بدمك الثمين (١٦٩) فيا ربّ كلّ صباح ومنظم الأوقات اسمع طلبتنا وارحم نفوسنا (١٦٠) الأرض لم تخطأ اليك مثلما أنا خطئت، ولم يغضبك كل المتمرّدين عليك كما أنا أغضبتك. حياتي قصيرة والمنيّة قريبة فماذا أصنع؟ بالحبّ الذي أرسلك إلينا اغفر لي ذنوبي (١٩٨) يا رب نحن نعرف أننا قد أسأنا اليك وأغضبناك كثيرًا بمعاصينا واذا استلّت العدالة السيف فحنانك يا رب يذود عنا واذا دنت الدنيا آخرها فلتكن آخرتنا الى مراحمك (١٦٩) فلنرنّم اذًا بين يدي الله الرحيم بقلب منكسر حسبما تنبّأ داود وقال: الربّ يجبر المنكسري القلوب ويشفيهم.

صفح الله عن معاصي من يسألونه

إن المسيح المتأنّس الفادي أراد أن يذكّر تابعيه مرّات كثيرة أنه مستعدّ كل يوم بل دائمًا لمنح الصفح لمن يسأله. ما أجمل الصلاة التي علّمها ابن الله، فطوبى لمن حفظها وتأمّلها... علّمك ان تقول عندما تصلّي اغفر لي ذنوبي، فهو يبغي المغفرة ولذا علّمك ماذا يجب عليك ان تقول له: اغفر لي ذنوبي. وعلّم أخصّاءه وحرّضهم على ان يقولوا لأبيه في صلاتهم: يا رب اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، فهو يروم الصفح عن المذنبين ولذا علّمهم ان يلجأوا إليه طلبًا للغفران (١٤٩).

وإذا ما غفر الانسان خطايا قريبه أحصاه الله من جديد بين المبشّرين بالله الغفور إذ قال لتلك الخاطئة: يا امرأة اذهبي مغفورة لك خطاياك وذنوبك، فالحقّ أقول لكِ إني سأسجلّك في البشارة مع مبشّريّ (١٦٥).

الخطيئة

الخطيئة «هي إهانة لله وتقف في وجه محبّة الله لنا وتُبعد عنها قلوبنا. وهي كالخطيئة الأولى معصية وثورة على الله... وإنها محبة الذات حتى احتقار الله»، «وفي نظر الإيمان لا شرّ أعظم من شرّ الخطيئة ولا شيء يجرّ على الخطأة أنفسهم وعلى الكنيسة وعلى العالم عواقب أوخم» (ت م ك ك ١٨٥٠ و١٤٨٨) الخطيئة تمنعنا الدخول الى العرس كالعذارى الجاهلات، فلا نغرقنّ يا أحبّائي في الخطيئة غرقنا في النوم ولنَسهرْ على باب العريس لكي ندخل معه الى خدره (١١٣). وإذا كان المسيح هو الطريق والحق والحياة (يو ١٤: ٦) فالشيطان هو الذي يصدّنا باحتياله عن طريق الحياة (١٠٤) ويُضلّ المختارين (١٢٤) كما أضلّ في الفردوس آدم الذي أمره الله وقال له: تلذّذ من كل الاشجار ولكن صُن نفسك من شجرة

واحدة فالموت مستتر فيها (١٦٥) ومع هذا عصى آدم الله. فإذا ماعصينا الله كآدم الذي مدّ يده الى شجرة المعرفة وأكل الثمرة التي تخفي الموت (١٨٨) فنصبح بالخطيئة غرباء عن معشر الله، فإذا ما أخرجنا الإثم منه فليُدخلنا اليه، يا رب، حبّك الصافي (١٠٠) فيخلق حينئذ فينا سيرة طاهرة ويبدّد عنّا ظلام الخطيئة (٤٥). فلقد خيّم ظلام الخطيئة على الجيل الذي نحن فيه إذ أحبّ الأثرياء الطمع والفقراء الكذب ومثلما تبتلع الحية رفيقتها هكذا يبتلع بعضهم بعضًا ولا يضعون نصب أعينهم دينونة الله (٢٠١) وتنقضي الأوقات والانسان يخدم الترّهات (١٦٢) فيأسف على ما قدّمت يداه ويلتجئ الى الله قائلاً له: يؤسفني أن أكون حصّتك بالاسم فقط اما بأعمالي وجرائمي فأنا بعيد عنك. اتشوّق الى التوبة فتصدّني عنها إرادتي الجامحة، أعلّم وأنا لا أتعلّم سقيت وأمّا انا فعطشت (٩٩ ــ ١٠٠).

نتائج الخطيئة

يخاف الخاطئ من الله الحاضر في كلّ مكان. أثمت فاختفيت لئلا يبصرني أحد، أمّا الرب فيراني عند ارتكابي المعاصي. اذا رآني امرؤ أخزى منه أمّا من الله فلا أخجل (٩٩) فيلجأ الى الله ضارعًا اليه: يا رب لا توبّخنا في رجزك ولا تؤدّبنا بغضبك.إننا لا نقدر أن نمثل أمامك ولا نقوى على احتمال سخطك (١٥٠) وينسحق قلبه فيصرخ: الويل لي لأني أُقصيت عن الرب، انطفأ سراجي في الوليمة وخرجت الى الظلمة البرّانية. يحتقرني الملائكة من جرّاء أعمالي وصرت رفيقًا للشيطان الذي كنت أعمل معه (٢٠٧) والويل لي لأني صرت عبدًا مجتهدًا بالمساوئ. نسيت المنيّة كالأثيم واحتقرت الناموس وعصيت الوصايا وأصبحت إرادتي الشرّيرة شريعة لي. والآن إني خالٍ من حسن السلوك وعارٍ من حلّة المجد (١٦١). وعصيان الوصايا هو قيد ثقيل يشكو منه العاصي: الويل لمن قيّد نفسه في هذا

العالم، فالقيد غليظ لا ينقطع ابدًا ولا يستطيع عاشق العالم أن يكون مجتهدًا لأن العالم جذّاب جدًّا ويضلّ الداخلين اليه (١٦١) ويأسف الآثم لتقييد الشرّير له: قيّدني الشرير بسلاسل الإثم ورُبُطه، فأنا أسيرٌ للخطيئة منذ زمن بعيد، وحنانك يا رب هو يكسّر قيودي ويشفي جراحي (١٧٥) وتلك القيود والجراح تجرّده من عزّه ورفعته، فآدم أوّل العاصين طلب من الله عونه: قُم وأعنّي ونجّني فقد سطَتْ حوّاء والحيّة عليّ ما بين الأشجار فخطئت بسببهما وخلعت المجد الذي كان حلّتي لأني أكلت من تلك الثمرة (١٧٥) وبذلك تصبح أرض النفس عطشى ويابسة بالخطيئة ومحرومة من الثمار اللذيذة (٢١٤).

ومن نتائج الخطيئة ويلات تحلّ بالعالم، فالعالم ستضمحّل فيه الخدم الروحيّة والقرابين وسينتشر الطمع وحبّ المال على الأرض وفي آخر الزمان سيقوم شعب على شعب فتخرب القرى ويحلّ الخوف بالمدن (١٧٠) وتضطرب الأرض بجرائر ساكنيها حين ينظر الرب اليها (الأرض) وتتزعزع أساسات المسكونة لكثرة الذنوب فيها (١٥٠). فالويل للأرض مما سيحلّ بها في الزمن الأخير، ستفسد بالإثم والكفر والدنس وستولول مثل المرأة عند مخاضها وستشرف على الزوال حينما تكثر الحروب والشدائد. كتب اشعيا: إن الأرض ستنتحب على ساكنيها، وكتب داود: إن الإيمان سيبطل وكتب الحكيم (سليمان): إن الجرّة ستتحطّم عند النبع وقال سليمان: إن آخرة العالم آئلة الى الفناء (١٦٩ ـ ١٧٠) وإن الانسان، وإن طعن في السنّ، فالشيطان المجرّب لن يهدأ الى ان يعيد الانسان الى حالة الإثم. يا ملك الضلال لقد أدّيتُ لك العبادة في سني حداثتي وضايقتني كثيرًا والآن، وقد طعنت في السنّ، تطلب مني عادات صباي لأنك لم تشبع من حياتي (١٦١).

ومن نتائج الخطيئة أيضًا تعرّض الخاطئ الى استهزاء الشيطان والمبغضين، وخوفه من ان يفاجأ بيوم الموت فيميل الى الله طالبًا عطفه ورحمته. يا رب نجّني من

شراك الشيطان لئلا يستهزئ بي الشرير ويسخر مني، فأنا مخلوق على صورتك ومثالك (١٠٤) ويا يسوع ألتمس منك بمحبّة والدك ألاّ يستهزئ بي مبغضيّ بل ليفرح الملائكة بخاطئ واحد يتوب عن ذنبه (٨٦). مال النهار وأحاطت بي ظلال الموت فكن لي يا ربّنا شمسًا في السماء فأسير بهديك ولا يوافيني يوم الموت وانا خارجًا عن كرمك، فتلطّف واقبل ساعة توبتي بنظرك العطوف (١٦٢) ألا اقبلني في آخر حياتي لأكون لك. قد أمطَرَني ملك الضلال بسهامه ليقتلني فأنت العظيم القويّ صِف لي دواءك فأشفى (١٦٢) وخوفًا من النهر الناريّ ومن جهنّم يلتجئ الخاطئ الى الله لينجو منهما ويقول له: قد فكّرت بك في الليالي لأنك مخيف جدًّا وقد سمعت صوت دانيال يقول: نهر ناريّ يجري أمامك فالويل لي لأن آثامي كثيرة وسأمرّ به إذا لم تشفع فيّ كلمتك (٩١) ويطلب من المسيح باسم الخطأة: أن يكون جسدك الذي أكلناه ودمك الحيّ الذي شربناه بإيمان جسرًا وممرًّا فنخلص من النار ومن جهنّم ونرث الحياة (٨٣).

التجاء الخاطئ الى الله

وليأمن الخاطئ تجارب العدو يعكف على الصلاة لله متوسّلاً اليه أن يقيم حرّاسًا على ابواب أعضائه المفتوحة لئلا يُسرق كنـــز موهبته (١٩١) فيزداد حبًّا لله وتجرّدًا من أباطيل العالم: يا رب طوبى لمن أحبّك أكثر من الذهب والحجارة الكريمة فسيعظم في هذا العالم ويرث الحياة الأبدية في العالم الآتي. وإذا ربح الانسان العالم كلّه وخسر نفسه فربحه كلا شيء ويدعو الله قائلاً: يا ربّنا أعطنا ان نمقت العالم ونربح نفوسنا ونرث الحياة الأبدية (١٦٥) فطريق العالم مشبوك ومليء بالمعاثر لكنما لا تعثر رجل من يمشي معك لأنك نهار (٩٣) فضمّد، وانت الطبيب، الجرح الذي يؤلمني لأن الخطيئة ترقّبتني وأثخنتني ضربًا دون شفقة (١٠٠) وفي هذا العالم نجّني من الشرير وفي العالم الآتي من القضاء الرهيب (٩٢).

ومن الصلوات التي بها يلتجئ الخاطئ الى الله الصلوات التالية: وعد، يا رب، فمك القدّوس وقال: ادعوا فأجيب واقرعوا فأفتح. إن الله صادق في أقواله (٨٣).

يا ربّنا افتح لنا بابك الكبير المملوء مراحم واسمع طلبتنا وارحم نفوسنا (٩٨).

يا وحيد الله إني أتطلع الى بحر عفوك فقد ازدادت آثامي وقد نمت نقائصي فبزوفاك النقيّة انضحني وبدموع مقلتيّ اغسلني (٨٦).

يا رب ارحمنا... وارسل لنا من كنـــزك الرأفة والرحمة والغفران (٨٧) إنضح الّلهم بندى حنانك أرض نفوسنا العطشى واليابسة بالخطيئة والمحرومة من الثمار اللذيذة (٢١٤).

يا من يسمع ولا يهمل وينقذ وينجّي تحنّن عليّ بنعمتك واغفر لي برحمتك (٨٨).

اللهم خطئت وأتضرع الآن اليك فاقبل طلبتي ومزّق صكّ ذنوبي التي اقترفتها. إبتلعتني هوّة الإثم العميقة فمدّ اليّ يدك لأصعد منها ولا أهلك فيها. إصطادني الشرّير وهو يعذّبني في الفخّ فيا ايها الراعي الصالح اكسر فخّه لأنجو من الشدّة، واخرج في طلب الخروف الضال ولا تدعه بين أيدي الشرير الذي يطلب حياته (١٠٠) واغفر لي ذنوبي الكثيرة ايها الابن الصالح الذي غفر للخطأة (٢٠٧).

نجّني يا ربّنا من نار جهنّم بآلامك وموتك ودفنك لأشكر لك نعمتك (١٦١).

لا ملاذ لنا حينذاك يا ربّ سوى رحمتك فبإشارة الصليب اصرف الشرير عنّا (١٢٤).

فليتعطّف الرب عليّ ولينتقم لي منك (ايها الشرير) فأحيا بنعمته (١٦١) ربّنا صعد الى الصليب وذاق الموت عوضًا عنه (آدم) واعاده الى مكان ميراثه (١٨٨).

طوبى لمن اقتنى مثل التاجر النشيط الحياة الموعودة والمؤبّدة (١٦١) هوذا زمن التوبة فليرتد كل امرئٍ عن إثمه لئلا يمرّ الزمن فلا يبقى مجال للاسترحام فلا تجازِنا

بحسب اثمنا (١٤٩ ـ ١٥٠) يا رب إنك قاضٍ وعظيم القضاة وسيمثل الانسان بين يديك آجلاً أو عاجلاً فاشفق عليّ بمراحمك (٩٩).

التوبة الباطنية: الندامة والدموع

يكتب مار بولس الى أهل روما (١٤: ١٠): «سوف نقف نحن جميعًا أمام منبر المسيح» وفي رسالته الثانية الى اهل قورنتية (٥: ١٠) «لأننا لا بدّ من أن نظهر كلّنا قدّام منبر المسيح ليجازى كلّ واحدٍ على خاصّة الجسد كما عمل إن كان خيرًا وإن كان شرًّا». وتتكلم نصوص أخرى من العهد الجديد على مصير أخير للنفس يمكن أن يكون مختلفًا لهؤلاء ولأولئك (ت م ك ك ١٠٢١) وذلك تبعًا لأعمالهم.

وحركة العودة الى الله عن الأعمال السيّئة تدعى ارتدادًا. والارتداد الى الله ارتدادان: الأول في سرّ العماد والثاني في سرّ التوبة. يؤكد القديس امبروسيوس أن في الكنيسة «الماء والدموع» ماء المعمودية ودموع التوبة (المرجع نفسه ١٤٢٧ ـ ١٤٢٩) فإذًا لا بدّ لنا جميعًا أن نقف أمام الرب الديّان العادل لنؤدّي الحساب عن حياتنا. فماذا نجد في الإشحيم عمّا نحن بصدده؟

إننا نحن الأشقياء لا نفكّر قطّ بأن آخرة العالم على الأبواب قائمة حتى نعود عن غيّنا (١٩١) وسوف يأتي ربّنا ليدين جميع الخلائق دون استثناء أمام منبره الذي يرهبه كلّ الناظرين اليه (١٩٥) والخوف من الدينونة يميل بالخاطئ لأن يقول: سمعت صوت النبيّ يردّد للأمم الرب يدين بالنار فاعتراني الخوف، فإذا كان الأبرار يخافون فالخطأة ماذا يصنعون (١٨٠) فيضرع الى الرب متوسلاً: يا ربّنا نجّنا من بحر النار ومن الممرّ الرهيب مثلما نجا الفتيان من الأتون في أرض بابل وأخزوا الكلدانيّين (١٦٧) وفي المحكمة الالهية سيكون البكاء نصيب الخطأة فتُمحَّص

أعمالهم ظاهرة كأنها تحت نور الشمس وينتقم منهم الديّان دون شفقة، إنّه لا يحابي ولا يرتشي (١٩٨ ـ ١٩٩). وإنّه لن يأتي في مجيئه الثاني ليصلب كما جاء في مجيئه الأوّل. أتى حينذاك فصار ذبيحة عن الأثمة وسيأتي فيما بعد ليجري الحكم بعدل. سيُمحّص العالم كلّه كما يمحّص الذهب بالكور وحيثما ترى النار درنًا تشرع في حرقه. فخوفًا من مجيء ابن الله، يا إخوتي، ليبادرنّ كلّ امرئٍ الى التوبة ويعتصمنّ بها (١٠٦) فلذا يطلب الإنسان من الله الذي يحاسبه ويقول: لا تدينني يا ربّ بصرامة لأنّك تعرفني أثيمًا، وإذا حاسبتني على ذنوبي فلا إرث لي سوى جهنّم والعزل عن الحياة والصمت عن التوسّل إليك (١٣٧) فحكمك صارم ومعاصيّ كثيرة والعدل يهدّد ولا قدرة لي على الهرب (١٨٢) ومن الأموات من ينتظر يوم الدينونة ومنهم من لا ينتظره. يبغي الأبرار وصوله ويجزع الأشرار منه. تتوق الحنطة إلى المطر أمّا الشوك فيستوجب الحريق. فأهّلنا لنكون مع الحنطة في أهرائك (١٣١). فتعطّف علينا يا رب، في مجيئك العظيم يوم الدين وأقمنا عن اليمين وألبسنا المجد السنيّ مع القدّيسين (١٤٧) وأنقذنا من جهنّم لأن جسدك ودمك مكنونان فينا وبما انّنا لم نكفر بصليبك لا تكفر بنا يوم تدين فيه جميع الأجيال (١٣٥) والطف بنا يا ربّنا في تلك الساعة وأقمنا عن يمينك (١٩٥).

دعوة يسوع الى الارتداد والتوبة على غرار الأنبياء لا تتوخى الأعمال الظاهرة كالمسح والرماد والأصوام والتقشّفات، بل ارتداد القلب والتوبة الباطنيّة... وارتداد القلب هذا يرافقه توجّع وحزن خلاصيّان سمّاهما الآباء غمّ الروح وانسحاق القلب (المرجع عينه ١٤٣٠ ـ ١٤٣١) وكثيرًا ما تفيض الدموع تعبيرًا عن التوبة الباطنيّة.

يتوسّل الخاطئ التائب الى الله أن يؤدّبه بالرحمة وينجّيه من قضبان الغضب ويشفق عليه بوفور رحمته فلا يذكر المساوئ التي اقترفها (١٨٩) لأنه مفعم حنانًا

انت بحر المراحم، وإثمنا مثل نقطة الحمأة، النقطة الواحدة لا تقدر أن تعكّر الخضم، والشعوب بأجمعها هي مثل قطرة واحدة حسب قول النبيّ، فكيف يقدر الإثم ان يعكر بحر صفائك (١٢٧).

ويأمل الخاطئ من الله ان يقبل توبته ويقول له: يا رب افتح لنا باب مراحمك كما فتحته للّص وارتضِ بتوبتنا كما ارتضيت بتوبة العشّار وتلك الخاطئة واغفر ذنوبنا وخطايانا كما غفرت لشمعون بعدما أنكرك فإنك انت الرحيم وقابل التائبين الذين يأتون اليك نادمين (١٤٤) وتلك الخاطئة التي صرخت للمسيح في بيت شمعون اغفر لي اغفر لي. أجابها الرب: امضي يا امرأة مغفورة لك خطاياك وممحوّة كل جهالاتك (١٥٠) وداود الذي قبل أن يخطأ دعا على الخطأة بالهلاك ولكنّه بعد أن أخطأ هو قال: ارحمني يا الله ولا تجازِنا بحسب إثمنا (١٥٠).

واستغاث الابن التائب بأبيه وقال له: افتح لي باب عفوك، اخطأت في السماء واليك فلا استحقّ أن أُدعى لك ابنًا. إقبلني كأجير فأكون عبدًا في بيتك وتجاوز عن جهالاتي، فأنت الأب الرحيم (٢٠١) حقًّا إن الرب هو أب رحيم لم يرسل ابنه لأجل الصدّيقين بل لأجل الخطأة كي يتوبوا وها هو باب الرحمة مفتوح فتوبوا أيها الخطأة لتحيوا فالرب يقول لا أريد موتكم (٩٧).

فتوبوا توبوا ايها الخطأة توبوا فتدخلوا الجنّة مع العريس عند ظهوره (١٠٢) فالله لا يمنع رحمته عن الخطأة الذين يدعونه (١٣٧) ولذا فلكي لا تكون فارغة الطريق التي سلكها ابن الله الذي جاء في طلبي، أقوم فأطلبه بواسطة التوبة. فأيقظ مشاعرك، أيها الخاطئ، واستغفر ربّك واتّكل عليه لأنه يفرح جدًّا بالعفو عمّن يستغفره (١٤٨) قد أثمت والآن أكفّر عن خطاياي بالتوبة، لن أهدأ ولن أسكت ولن أستريح ولن أكفّ عن الطلب حتى أكفّر عنها (١٤٨). وإنه تعالى لا يرذل

التوبة وتوجّع النفس. فإذا كان الرب يؤنّب الانسان على القبائح فأعترف له برذائلي ليشفيني منها بعفوه (١٤٣).

فيا أيها المسيح يا محبّ التائبين، إننا نقرع باب مراحمك فأهّلنا يا ربّنا لأن نكون تائبين بالقول والفعل (١٩٥). وبما أن الله قبول للتائبين، فيا إخوتي، هلمّ نسترحم طالما لنا زمان للاسترحام. ففي هذا العالم مجال للتوبة، وأمّا في العالم الأبدي فلا مجال لا للندامة ولا للابتهال (٩١) فالويل لي، يقول الخاطئ، لأنّي رعيت مع الخراف على مروج العزّ وتلذّذت معهم بحياة مريحة فماذا أصنع يا ترى إذا أطلّ الراعي وانا متّشح بثوب الجداء الأسود (٨٢).

وبدل ان تكون حالة الخاطئ هذه التعسة فرصةً ليغيّر حالاً سيرته: إنه يتماهل في رجوعه الى الله. ومرّ الصبح ولم أتب وعاد المساء فازدادت ذنوبي. والويل لي، قال الغنيّ، تبًّا للعالم الذي خدعني. الويل لي إن لم أتب (١٠٤ ـ ١٠٥). وبألم يتوجّه الخاطئ الى الله نادبًا ما هو عليه: يا رب إني أَعِد اليوم تلو اليوم بأني سأتوب غدًا فانقضت أيّامي واضمحلّت ولا تزال ذنوبي قائمة (١٦٧) وقد تفاجئه المنيّة وهو على هذه اللامبالاة، تدعوك التوبة، أيها الخاطئ، فقم وارفقها بسرور والتجئ الى أكنافها ولا تعِد اليوم تلو اليوم لئلاّ تدركك المنيّة اليوم أو غدًا (١٩٨) لأنّ ثلاثة تخيف الخاطئ فيرتعش منها ساعة الموت والقضاء الرهيب وجهنم (١٦١) فيسأل الله ان يتحنّن على النفس والجسد ما داما على هذه الأرض لأنه عندما ينفصل الواحد عن الآخر لن يستطيعا ان يشفعا في ذنوبهما بالمحكمة (٨٥).

دموع الندامة

إن دموع العينين دلالة على ندامة الخاطئ وتوبته، تذكّرتُ أني أخطأت ففاضت دموعي ندامة (٨٨) ويُحَبّ الخاطئ إذا ابتلّ وجهه بالدموع وانسدّ فمه بالبكاء المرير الأليم والحجارة الكريمة ليست أحبّ من القطرات التي تذرفها عيون التائب. ولربّما تقول لماذا تطلب البكاء مني؟ فاسمع ربّنا لما يقول: طوبى للباكين. ان اللبيب يقدر جيّدًا سبب البكاء. ولو لم يتأمّل المرء في عيوبه لما بكى عليها. فالدموع هي عيد التوبة الكبير، فأحضر الدمع وتعال خذ الغفران (١٠٧) ويصلي الخاطئ الى الرب: يا رب، افتح لي بابك المملوء مراحم كما فتحته للخاطئة، يا رب اقبل الدموع التي أذرفها (٢٠٧) ويشهد بأن باب الله مفعم بالمراحم في كل ساعة، اللص والعشار والخاطئة الذين غفرت خطاياهم بدموعهم (١١٦).

يا أيها الخاطئ أيقظ نفسك للتوبة وأكثر الصلاة، أذرف الدموع دون كيل واحضر الدمع قدر استطاعتك للتوبة فقطرة دمع تطفئ بحر النار الذي فيك (١٤٧). إلاّ أنه ينبغي ألاّ يستسلم الخاطئ الى اليأس مهما كثرت خطاياه لأن الله رحيم. عطّر البكاء واذرف العبرات عوضًا عن البخور فيزول حقًا عنك كلّ الغضب. إيّاك والاستسلام لليأس المملوء موتًا، ثق واسترحم فتُقتَبل (١٩٢) وتكفيرًا عمّا ارتكب الخاطئ من الآثام يأسف ويصلّي: من يهبني قلبًا نادمًا وينبوعًا من الدموع لأجلس وأبكي على نفسي بتنهّد مرير. فقد قضيت السنين من حياتي في الأعمال الباطلة غير النافعة وكنت فيها سافلاً بسيرتي (١٣٥). ويتوق الى غفران الله ويلتمس منه أن ينعم به عليه ويهبه دموعًا يلتمس بواسطتها الرحمة طالما لديه وقت (١٦١).

ومثالٌ للخاطئ هو ذاك التلميذ الذي بكى، إنه يعلّمه ماذا عليه أن يعمل اذا تاب. فلمّا انقاد للكفر وقد جرّه اليه الشرير بكى بحسرة وتطهّر بدموع مقلتيه (١٩٩).

فهيّا أيها الخاطئ وأحضر دموع التوبة وابكِ ولا تكفّ عن البكاء. إن البكاء ناجع لك اليوم. جرحك البليغ يتطلب دموعًا غزيرة ولن يشفى هذا الداء إلاّ بالدموع. وهيّا بنا الى العدالة التي تتوعّدك واسترضِها بالحسرات فتستجيبك، خذ الدموع وأدخلها معك الى العدالة فتخمُد حالاً ثورة الغضب (١٩٢) فاستيقظ أيها الخاطئ ما دام لك زمان وغسّل أدناسك بالدموع وبيّضها بالحسرات (١٠٨) ويضيف الخاطئ إن داود بن يسّى أيقظه بأناشيده من السبات المحكّم بأعضائه وقال له: إنهض يا رجل ولماذا أنت بعد نائم. ففي منتصف الليل تسلّم الرشوة الى القاضي. فانهض يا رجل وصلّ واستغفر ربك فإنه يرضى بالدموع وبابه مفتوح للتائبين ليل نهار (١١١) وعلمًا منه أن الديّان العادل لا يقبل رشوة من أحد، سأل الله ما الرشوة التي تفضّل لأقدّمها لك. بلغني أن دموع العين هي أعزّ عليك من الذهب الخالص والحجارة الكريمة. فاقتبل اللّهم العبرات من مقلتيّ واصفح عن سيّئاتي وزلاّتي واشفق كعادتك عليّ وارحمني (١٢٤ ـ ١٢٥). فليبيضنّ اذًا يا إخوة كلّ امرئٍ ثوبه بدمع عينيه فقد دنا مجيء ابن الله ويشهد الرسول أن آخرة العالم قد اقتربت فطوبى لمن يُدان برحمة (١٤٨ ـ ١٤٩).

وما أجمل الصلاة التي ترفعها كنيستنا السريانية في ستّار يوم الاثنين: «ما أشجى صوت الخاطئة لمّا قالت للعطّار: أعطني زيتًا وخذ ثمنه ذهبًا لأمزجه بدموع عينيّ وأمضي فأمسح بكر العليّ. وإني متّكلة على الله، لأن الزيت الذي آخذه منك هو يغفر لي ذنوبي وخطاياي. وبعد ما حملت الزيت وانصرفت رأى الرب إيمانها فتجاوز عن آثامها»... لا يا رب لن أموت بخطاياي. فمنذ الآن أقدّم لك دموع مقلتيّ هديّة تحبّها. لن أضحّي لك بالثيران ولا بالحملان والجداء ولا باليمام وفراخ الحمام، بل بنقطتين من عينيّ على غرار الخاطئة في بيت شمعون، فاقبلهما وارحمني. فبمحبّة الآب والدك وبصلاة والدتك اغفر لي آثامي (٨٧).

وتصلي أيضًا كنيستنا في ستّار يوم الثلاثاء وقد اوردنا الكثير من تلك الصلاة: الخاطئ محبوب إذا ما ابتلّ وجهه بالدموع وانسدّ فمه بالبكاء المرير الأليم. وليست الحجارة الكريمة أحبّ من القطرات التي تذرفها عينا التائب. وقد تقول: لماذا تطلب البكاء مني؟ فاسمع ربّنا حين يقول: طوبى للباكين، واللبيب يقدّر جيدًا سبب البكاء؛ ولو لم يتأمّل المرء في عيوبه لما بكى عليها. إذا أحببت أن ترسم رسمًا للتوبة فألوانها الزاهية لا تُجبَل إلاّ بالدموع. فالدموع هي عيد التوبة الكبير. فأحضر الدمع وتعال خذ الغفران. المجد للآب الذي يرفع عنّا الغضب بالتوبة والسجود للابن الذي يصفح عن الذنوب بالدموع، والحمد للروح القدس الذي يفرح بالدموع السائلة، المجد للجوهر الواحد الذي لثلاثتهم الّلهم استجبنا. الّلهم استجبنا وارحمنا وردّ قلوب البشر الى التوبة (١٠٧).

الموت والقضاء الرهيب وجهنم

تنصح الكنيسة الخاطئ بألاّ يؤجّل توبته فقد يدركه الموت: «أيّها المؤمن لا تعِد اليوم تلو اليوم بأن تتوب» لئلا يدركك الموت اليوم أو غدًا، إنّ ثلاثة تخيف وترعب: ساعة الموت والقضاء الرهيب وجهنم (١٦١) ان الحياة قصيرة والموت قريب (١٩٨) وبما أنك، أيها الخاطئ، تجهل متى يدركك ملاك الموت فلا تتأخّر عن التوبة (١٥٩) بل عليك أن تسير في هذا العالم الزائل سير التاجر الذي يبحر وعندما تشدّ الرحيل لتخرج منه يفرح الحامل ويحزن الفارغ فطوبى لمن اقتنى مثل التاجر حياة الأبد (١٦٩).

إن الموت يفاجئ الانسان والعدالة الالهيّة سوف تحكم عليه. فمن خطئ فلا يخطأنّ ومن لم يخطأ فليحذر الخطأ لأن العدالة على الباب وتناقش الحساب تكتب، وبيمينها القلم، أعمال كل الناس وبلا محاباة (١١٦) ويدين الرب بالنار كما ردّد

النبيّ للأمم فيعتري الخاطئ الخوف. فإذا كان الأبرار يخافون فماذا يصنع الخطأة. فيا يسوع مخلّص العالم ارحمني يوم قضائك (١٨٠). ويهلع الخاطئ من حكم الرب، حكمك يا رب صارم وخطاياي كثيرة والعدل يهدّد ولا مهرب لي (١٨٢) ويضرع الى الله قائلاً: يا قاضي القضاة لا تنكّس هامتي في يوم الدينونة لأني خطئت وأغظتك، فبالحبّ الذي بعثك الى القضاء لا تحاكمنا ولا تذكر آثامنا، ايها الديّان العادل اشفق علينا وارحمنا (١٨٢). ويقرّ بأنه خطئ وأنه لَكئيب وخائف من حكم الله ويرجو رحمته. لا محاباة ياربّنا في حكمك ولذا فأنا حزين لأني أثيم، فليدافع حنانك عنّي حينما تفتح العدالة السجلاّت الرهيبة وتقرأ آثامي فلتشفع نعمتك بها لدى العدالة كي أنال الغفران، وإني لا أنكر، يا رب، بأني خطئت فاشفق عليّ وارحمني (١٢٤) ثم يطلب رأفة الله، رأفته باللصّ اليميني، اللهم، عندما تدينني العدالة لا تدع ذنوبي تحجب شخصي ولا أوجد عريانًا يوم القضاء بينما يكون الأبرار متّشحين بالمجد ولأني هويت وسقطت بالخطايا فمدّ اليّ يمينك وأقلني ايها المتحنن على الخطأة، وارأف بي كما رأفت باللصّ على الصليب انت يا من بابه مفتوح للتائبين (١٣٧ ـ ١٣٨). ويلتجئ الى الله لينقذه من النار الأبديّة، أيها الصالح وابن الصالح، إن حنانك أعظم من إثمنا، فلا تسمح يا رب للنار الأبديّة أن تفسد الذين هم على صورتك (١٠٥) وأخيرًا يذكّر الخاطئ الربّ بعربون الخلاص اي بجسده ودمه اللذين أعطاهما لنا مأكلاً ومشربًا حقًا، أطعمتني يا رب جسدك ودمك فافتح لي باب مراحمك كما وعدت في بشارتك لكي لا أبقى خارجًا وأضحي زؤانا ونصيبًا للنار (١٨٨).

الوسائل التي تنشّط روح التوبة والعودة الى الله

١ ـ التذكّر المتواصل بالمعاصي التي ارتكبها الانسان؛ طوبى لمن يضع نقائصه نصب عينيه مثل داود الملك البار والنبيّ الجليل الذي كان يصرخ الى ربّه: خطاياي امامي في كل حين (١٠٥) ونافع أيضًا استحضار الله كي لا يقدم الإنسان على ارتكاب المعاصي، ايها الربّ ربّنا الى أين أبتعد عنك وأين أختفي من امام عظمتك، فإن صعدت الى العلى فأنت الى الأبد هناك، وإن انحدرت الى الجحيم فهناك سلطانك، تحنّن إذًا عليّ بمراحمك وأقمني عن يمينك إذ لا يقدر ان يتبرّر كل حيّ أمامك (١٦١).

٢ ـ سر الافخارستيا: سبحان من قسّم هداياه على رسله في العيدين ففي عيدٍ (خميس الفصح) وزّع الجسد والدم، وفي الآخر (العنصرة) الروح والقوّة (١٥٣) وبالجسد والدم والروح والقوة يقهر الانسان شهواته وأمياله المنحرفة، بواسطة جسدك الحيّ الذي أكلته نجّني من الشهوة البغيضة (٢٠٧) وينال الصفح والغفران: إن الذين حملوا في المذبح المقدس على أيديهم جسدك ودمك المبرّر استغفارًا عن ذنوبهم فليغفر جسدك آثامهم وليصفح دمك عن خطاياهم (١٥٣). وكلّ واحد منهم يقول للرب الرحيم: إذا كنت لا أستحقّ المغفرة فاشفق عليّ بسبب جسدك ودمك المطمورين فيّ. قد أحببتك وسجدت لصليبك وتطهّرت بجسدك ودمك فارضَ عنّي وسامحني يا يسوع الممتلئ رحمة (١٢٤).

٣ ـ الصليب المقدس الذي مات عليه المسيح لينقذنا من الخطيئة ويعتقنا بتجلّيه الخلاصيّ من ظلام الخطيئة وضلال الفساد (٥١). لمّا رأى الله أن المسكونة أبت أن تتوب أرسل ابنه ليخلّصها بصليبه (١٢٧) والمسيح لمّا رأى أن الخطيئة أفسدت الجنس البشري ارتمى على خشبة الصليب ليفدينا ويخلّصنا نحن الخطأة الأثمة (٥٠) ففي

يوم الجمعة بسط سيّد البرايا يديه على الصليب وبمشيئته ذاق الموت عوضًا عن تلك الثمرة التي أكلها آدم وأعاده الى ميراثه. يوم الجمعة شاهدت الكنيسة المسيح على قمّة الجلجلة فجثت وسجدت له وقالت له: المجد لك يا رب لأنك أتيت وافتديتني (١٦٧). وطعنه الجهّال بالحربة يوم الجمعة على الصليب فجرى منه الدم وماء الحياة غفرانًا للأمم التي اعترفت وآمنت به (١٨٢) فتبارك من فتح جنبه للخطأة التائبين (١١١). وأوّل من تاب الى الله هو اللصّ. نام ورقد الراعي على جناحي الصليب فتبدّدت خراف قطيعه في أسواق أورشليم، كفر به شمعون وقال إنه لا يعرفه وأقسم وحلف أنه لم يره قط، أما اللصّ اليمينيّ فصرخ وقال: اذكرني يا ابن الله حينما تأتي بالمجد في جموع ملائكتك (١٧٢). إن الصليب ينجّينا من الشرير وقوّاته ويورثنا ملكوت العلى (١٨٤) وهو الذي هدم فعلاً حائط الغضب وصالح الله والبشر فتسالموا (١٧٣). وبعد أن عصى آدم الأمر إذ أكل في الساعة الثالثة الثمرة في جنّة عدن. ففي الساعة الثالثة صعد الصليب سيّد جنّة عدن عوضًا عن عبده الخاطئ وفي الساعة الثالثة كتب بالصليب تحرير آدم وأعاده الى مكان وراثته (١٨٤). فلا خوف على بني البشر من الشرّير لأن الرب معنا وقد لبسنا سلاحه العظيم أي الصليب المحيي (١٧٧) ويرفع الخطأة بصرهم الى صليب المسيح ويقولون له: أيها الصليب الغافر اغفر آثامنا... نحن الذين التجأنا الى صليبك، يا رب، احرسنا من الشرير وجنوده واسترنا في كنف صليبك (١٨١).

٤ ـ مريم العذراء ام الله لها دالّة كبرى لدى ابنها يسوع المسيح ولذا يلتمس منها الخطأة أن تشفع فيهم الى الرب الذي أشرق منها (٢٠٤) إنها أمّ المسيح فادينا الذي أعتقنا بتجلّيه الخلاصيّ من ظلام الخطيئة وضلال الفساد (٥١) والى هذه أمّ الله المتأنّس يلتجئ الخطاة كي تستمدّ لهم من الابن الذي ظهر منها أن يمحو خطاياهم بنعمته ويصفح عن جهالاتهم بحنانه (٥١) ويزيل بصلواتها قضبان الغضب

عن كل من يلوذ بها (١٦٨). الى هذه الأمّ يرفع المسيحيّون صلواتهم طالبين شفاعتها: يا من بمحاسنها صارت أمّ سيّد الملوك تضرّعي الى وحيدك والتمسي منه ان يرحمنا (٢٠٩) ويا ممتلئة رحمة تضرّعي الى الرحمة بالذات والتمسي منه ان يرحم النفوس الطالبة الرحمة (١٢٩) وفي ستّار الصوم الاربعيني جاء على لسان المؤمن: بصلاة والدتك لأجلي لن يدنو الشرّير من فراشي وبذبيحتك عنّي إمنع الشيطان أن يلحق الضرر بي (٢٠٨).

٥ ـ الملائكة والقدّيسون والشهداء: إليهم يلتجئ المسيحيّ ليُحفظ من الشرّير وإذا انتصر عليه الشيطان وأخطأ فلينال الصفح والعفو. حوّطنا يا رب بحراسة ملائكتك لكي لا يدنو العدو منا وتبلبلنا حيله (٢١٩) ويا ايها الشهداء الذين قُتلوا حبًّا بسيّد الأحبار تضرّعوا الى المسيح والتمسوا منه في صلواتكم أن يرحمنا (٢٠٩) يا شمعون هامة الرسل ويا بولس مختار البيع ويا توما الذي قصد الهند ويا شهداء ظفروا وتكلّلوا تضرّعوا الى المسيح والتمسوا لنا منه الرحمة (١٥٩) وتوسلوا من اجل ذنوب العالم (١٨١). ويا ايها الأصفياء، ايها الشهداء إنّ ذكركم هو بركة وقد صرتم ميناء المعونات للخطأة التائبين فتوسّلوا معنا الى المسيح الساكن في عظامكم ليتحنّن علينا ويرحمنا يوم تشرق عظمته ويمنحنا اسفرار الوجه أمام منبره الالهيّ (١٣٠).ويسألهم المؤمنون وهم الذين عبروا الجسر الناري الى العلى ان يصلّوا لكي لا نغرق في بحر الخطايا الهائج (١٠٢) اطلبوا أيها الشهداء الرحمة لجيلنا الخاطئ كي يُحفظ بصلاتكم ويخزى الشيطان ويندحر جنوده بقوّة دعائكم (١٦٦). ويسألون الله قائلين: لا تؤدّب، يا رب، العالم، بالمحن لأننا خطئنا اليك بل لأجل الأنبياء والرسل والشهداء القدّيسين ارحم رعيّتك ايها الابن الشبيه تمامًا بأبيه (١٥٩) وأزل عنا وأبطل ضربات الغضب وقضبانه بجاه القدّيسين الذين يبتهلون معنا الى ذلك الذي أتمّوا مشيئته (١٨٩) ويرجونهم ان يتوسّلوا من أجل

ذنوب العالم (١٨١) وأن يرفع الرب قضبان الغضب عن كل من يعتصم بالأساقفة والآباء بإيمان (١٥٤) وأن ينظر الى دم الشهداء ويترضّى عنّا نحن الذين أسخطناه بذنوبنا (١٧٩) ولينقذنا المسيح بصلواتهم من كل الشدائد والضربات وينجّينا من النار التي لا تطفأ ومن البكاء المرير (٥٢).

٦ ـ تقدمة البخور: كان كهنة العهد القديم يقدّمون لله بقلب نقيّ مجمرة الغفران لأجل الخطأة، فقد حمل هارون المجمرة ودخل قدس الاقداس وبخّره استرضاءً لله فأرضاه (١١٤) ولذا أثناء تلاوة صلاة الإشحيم في الكنيسة مساء الثلاثاء، وعند نشيد البخور يقول المترئس: ليكن البخور الذي قدّمه عبيدك، لاستمالة مراحمك، غفرانًا وصفحًا عن خطايانا (١٠٢). وصباح الأربعاء في نشيد البخور يقال: ليكن عطر البخور الذي قدّمناه أمامك غفرانًا لذنوبنا وصفحًا عن خطايانا، وأقمنا عن يمينك يوم تشرق مراحمك ايها الابن الحي الذي خلّصنا بصليبه (١٣٤).

٧ ـ الصوم والسهر والصلوات والدموع: تردد الكنيسة على مسامعنا: أن هوذا الزمان المقبول وها هي أيّام الخلاص الذي فيه يُقهر الشيطان فلنجتهدنّ يا إخوتي في الصوم والسهر والصلاة من اجل الحياة الأبدية (١٩١) ونضع نصب أعيننا توبة أهالي نينوى التي أنقذهم من غضب الرب: فلما سمع أهل نينوى صوت يونان بن متى (أمَاتّى) اضطربوا فلاذوا بالسهر والصوم والتوبة والصلوات والدموع والتنهّدات فبطل الحكم الصادر بحقّ نينوى وقد أنذر به يونان. فمبارك الحنّان الذي ردّهم من الطالحات الى الصالحات (١٤٤ ـ ١٤٥).

خاتمة

الانسان مولود المرأة قليل الأيام كثير الشقاء (ايوب ١٤: ١) هذه الحال التي صرنا اليها بسبب المعصية فلا أحد في العالم خالٍ من شدّة أو ضيق، إن العالم بحر وكل أمواج الشرّ والإثم ثائرة فيه. فيا ربّنا اعضدنا كما عضدت تلاميذك لأننا نهلك، وبما أن سفينتنا شارفت على الغرق فلندعونّ يسوع الملاّح الأمين ليزجر عنّا الأمواج المهلكة ويكون لنا بحنانه ربّانًا حكيمًا ويوصل سفينتنا الى الميناء المفعم راحة (١٠٧). ولما كان الخطأة بحاجة الى رحمة وغفران، فيا ايها الخطأة هلمّ نبتهل ونستمدّ الغفران فباب الرحمة مفتوح لمن يقرعه. فكل من يسأل ينال ومن يطلب يُعْطَ له (٩٥) وبما ان باب الرحمة مفتوح، فيا ربّنا، أنا أقرع بابك وأستمدّ الرحمة من كنـــزك. حِدْتُ أنا الخاطئ أعوامًا عن طريقك فهبني أن اعترف بخطاياي وأندم عليها وأحيا بنعمتك... وأيّ باب نقصد ونقرع غير بابك، ياربّنا الحنّان، ومن لنا ليشفع في جهلنا غير رحمتك (١٥٧) وأول من فتح ذاك الباب هو اللصّ اليميني إذ صرخ وهو على الصليب عن يمينه تعالى وقال الطوبى لي ثمّ الطوبى، أهّلني يا الله لأن أفتح الباب الذي أوصده آدم بعصيانه فأدخله مبيضّ الوجه (١٧٩).

إن الإنسان الذي خلقه الله على صورته ومثاله شوّهت الخطيئة نفسه وسوّدتها فاخذت ترثي حالها وتسعى الى إعادة جمالها الرائع السابق حتى تتمكّن من الدخول الى العرس الأبديّ وهي لابسة ثوب البرارة. يا محبّ البشر قد خلقتني على صورتك ومثالك وزيّنتني بالعقل والحرّية، فأظهرت لي الجمال الرائع صنع يديك (١١٢).

ويسبح الساهرون ذلك الذي نسج لنا ثياب المجد.

وتقول النفس المريضة في ألمها: من يعطيني تلك المحاسن التي كنت أتحلّى بها كي لا أخطأ، واذا اقتبلني الله برحمته فمن يستطيع أن يعيد اليّ محاسني التي فقدتها.

طبيعتي الجميلة والبهيّة مثل النهار التي أظلمت وذبلت من ينيرها لتستعيد جمالها. وإذا غُفرت لي آثامي بتحنّنك فمن يرفعني الى الدرجة التي هويتُ منها. هلمّي ايتها النفس صورة الملك التي فقدت جمالها، إن جمالك بين يدي ربّك وهو محفوظ لك ليُعاد اليك (١٢٠). ورائع ما جاء في صلاة البابا يوحنا بولس الثاني للسنة التحضيريّة الثالثة ليوبيل الألفين، سنة الآب «لك الشكر، أيها الآب الكليّ الصلاح من أجل عطيّة السنة اليوبيليّة، إجعلها زمنًا صالحًا، زمن العودة الكبرى الى البيت الأبويّ، حيث في محبّتك العظمى، تنتظر أبناءك الضالّين لتمنحهم قبلة المسامحة وتستضيفهم الى مائدتك متّشحين بثياب العيد...»

الملحق

بعض النوافذ والصلوات في التوبة ورحمة الله في الاشحيم السرياني: مبارك من بابه مفتوح للخطأة التائبين فمن يسأل يأخذ ومن يطلب يجد ومن يقرع باب المراحم يفتح له (١١٦).

ألبس يا رب عبيدك الساجدين لك السلاح الروحيّ ووشّحهم بالمحبة والوئام وانصرهم على الشرّير وجنوده واصفح عن آثامهم واعفُ عن هفواتهم وتغاضَ في عفوك عن زلاتهم (٤٩).

_ لا توبّخنا يا رب برجزك كما انشد داود ولا توبّخنا بغضبك (١٤٣).

_ ايها الديّان العادل الذي يدين بإنصاف لا تدنّا ولا تذكر آثامنا. ايها الديّان العادل ارحمنا واغفر لنا بوفرة رحمتك ذنوبنا (١٩٧).

_ ارحمني يا رب ارحمني يا الله بنعمتك واصفح عن خطاياي برحمتك واغسل ذنوبنا وشرورنا بزوفى حنانك وأعد الخطأة اليك ولا تدع العدوّ يجرّنا الى الكلام السوء (٢١٣).

_ يا ربّنا ارحمنا يا ربّنا اشفق علينا وارحمنا (٣٣) يا رب تحنّن على شعبك يا رب اغفر وامحُ خطايانا (٤٧).

_ يا من حمل ويحمل خطيئة العالم ارحمنا (٤٤).

_ الينبوع الذي فجّره الروح هو يروي ظمإي (١٠٠).

_ اللهم نحن نعرف أن ذنوبنا كثرت ونعرف أيضًا أن مراحمك هي أكثر فإذا كانت مراحمك لا تشفع فينا فلربّما نهلك بسبب خطايانا، يا رب يارب لا تهملنا انت الذي افتديتنا بدمك الثمين (١٦٩).

ـ أقِمْ يا رب حارسًا لفمي ورقيبًا لشفتّي لئلا يميل قلبي لكلام الشرّ فأعمل أعمال الإثم (٣٤ ط. مز ١٤٠).

ـ أيها البار القدّوس الساكن في ديار النور أبعد عنّا الأهواء القبيحة والأفكار الرديئة(٩٥).

ـ أيها الاله الرحيم اصفح بجودك عن ذنوبي وتجاوز عن جهلي ولا تسلّمني للعدوّ لئلا أقع في مصيدته فيشمت بي معارفي أيضًا ويسخرون مني (١٤٣).

إني عطشان الى مراحمك ولا أقدر أن أعيش دونها فيا بحر المراحم بلّلني بفيض حلمك (١٦١ ـ ١٦٢).

ـ لا تهمل التوبة فربّك يحبّ التائبين، إذا شئت ان تُغفر لك خطاياك سريعًا، إصرخ الى الله نادمًا وهو يعفو عن جهالاتك (١٠٨).

ـ إذا خطئ العبد الى سيّده يبادر اليه ويلوذ بمراحمه ويبتهل اليه فيتجاوز السيّد عن ذلّة عبده ونحن يا ربنا نلتجئ الى صليبك فلتسرع مراحمك إلينا (١٦٩).

ـ خطئت وأذنبت وعصيت وها إني أبادر إليك فارحمني. يا من يتحنّن على الخطأة ويقبل التائبين بادرت اليك فارحمني (١١٣).

ـ يا رب أتينا في المساء الى بيتك والتمسنا منك الرحمة والرأفة وغفران الزلاّت وغدونا اليه في الصباح وسجدنا لك يا فادينا لأنك انت مبرّر الخطأة من معاصيهم (١٤٥).

ـ اللهم امنحني... إذا نمت أن انام بدون خطيئة... واذا خطئت في رقادي أن يغفر لي حنانك. أستحلفك أن تنجّيني من الأحلام الرديئة والتصوّرات القبيحة وألاّ يتسلّط عليّ الأشرار والأفكار المملؤة إثمًا (٢٠٧).

ـ ايها الرب الرحيم تحنّن عليّ كما تحنّنت على اللصّ لا لأني أستحق ذلك بل بسبب نعمتك التي أنزلتك الى جنسنا البشريّ لتنقذه من مضايقيه: الموت والشيطان (١٤٤).

ـ بالمراحم التي تحنّنت بها على اللصّ اليميني تحنّن بها أيضًا علينا يا ابن الله وارحمنا (١٨٤).

ـ ايها البحر الزاخر بالمراحم قد تجاوزت عن معاصي وآثام الخاطئة التي دهنت قدميك، انا الشقيّ الخاطئ أصرخ اليك كذلك العشّار فتحنّن عليّ وارحمني.

ـ ايها الرب الاله أهّلني لأن أشيد بمجدك مع الخاطئة التي دنت منك فنالت الغفران ايها الربّ الاله أهّلني لأشيد بمجدك مع اللصّ الذي آمن بك فوعدته بالفردوس (١٣٣).

ـ أستغيث بك مثل الخاطئة وأضرع اليك مثل العشّار، فيا ايها الربّ الرحمان اشفق عليّ وارحمني (١٢٧).

ـ اللهم يا من اقتبل دعاء ابن متّى وهو في جوف الحوت وأمر الحوت الضخم فلفظه في اليوم الثالث، إسمع صلاتنا وارض عنا واستجب بمراحمك سؤلنا وإذا أغضبناك فثمّة من يرضيك هم الشهداء الذين ماتوا حبًّا بك (١٣٧).

ـ يا من سلّط الموت على آدم وذرّيته لأنه عصى أمر خالقه ويا ايها الجواد الذي بفيض مراحمه نزل وافتداه تحنّن علي انا الخاطئ وارحمني (١٥٥).

ـ أنشد داود الملك والنبيّ قال في المزمور الحادي والخمسين ارحمني يا الله واغسلني كثيرًا من الإثم الذي اقترفته يداي وارحمني (٨٤).

ـ سبحان الابن البكر الذي انحدر الى الجحيم وقهر الموت وشاهده آدم فتعزّى به وحنا عنقه وسجد له وقال: إغفر لي جهالاتي وانتشلني يا رب من هنا وأهّلني وذرّيتي للملكوت السماوي (١٩٩ ـ ٢٠٠).

ـ ايها الإله الرحمان إني أبادر اليك وأهتف ملتمسًا منك الصفح عن آثامي فتحنّن عليّ انا الخاطئ وارحمني. ولأنه ليس في العالم خاطئ آخر مثلي، لأني

خطئت كثيرًا وأغضبتك فلذا أصرخ اليك فتحنّن عليّ انا الخاطئ وارحمني... وبما أني غارق في كثرة الخطايا مثل الغارق في البحر فانتشلني منها يا رب الكل بنعمتك وتحنّن عليّ... وبما أني صرت مثل ذلك العبد الذي لم يتاجر بالوزنة التي سلّمه اياها سيّده فأحصني مع صاحب العشر الوزنات وتحنّن عليّ... وبما أني أضحيت مثل التينة التي لم تُعْطِ ثمرًا في حينه فأمرت أن تقطع فيا ثمرة ظهرت من مريم تحنّن عليّ... وبما أنّ العشّار واللصّ والخاطئة دعوك فاستجبتهم فأنا أدعوك يا رب ألا تحنّن عليّ... وبما أن معاصي ازدادت وهفواتي طفحت لذا أتضرّع اليك يا رؤوف أن تتجاوز عن معاصيّ بعفوك وتحنّن عليّ (١٥٥).

ـ وضع يسوع ابن الملك علامة للحياة فينا حتى يبتعد الشرّير عنّا إذا أبصرها فينا، إنه مزج جسده المقدس بدمه ليطهّرنا... فليطهّرنّ المرء نفسه وجسده من السيئات اذا ما جاء الهيكل للصلاة فيسمع الربّ صلواته وأدعيته ويتحنّن عليه ويرحمه في يوم الدين (١٤٨ ـ ١٤٩).

ـ راجعت الأطباء فوصفوا لي أدويتهم والجرح أليم وليس من يضمّده بلغني أنك طبيب ماهر وأن لديك أدوية كثيرة وأن من يدنو منك ينال العلاج. فبمحبّة والدك وبصلاة والدتك اغفر لي آثامي (٨٧).

ـ يا ربنا ارحمنا، يا ربنا اشفق علينا وارحمنا (٣٣).

ـ يا رب تحنّن على شعبك، يا رب اغفر واترك خطايانا (٤٧).

ـ ايها الآب المحتجب احرسني، ايها الابن استرني، ايها الروح القدس نجّني من مكايد الشيطان وشرك الشرّير ومكامن العدو وارحمني (٨٥).

ـ المجد للآب الذي يزيل عنّا الغضب والسجود للابن الذي يصفح عن الذنوب بالدموع، والحمد للروح الذي يفرح بالدموع المنهمرة (١٠٧).

ماذا في الإشحيم السرياني

عن مريم العذراء

وعن توبة الخاطئ ورحمة الله

اغناطيوس انطون الثاني حايك
بطريرك السريان الانطاكي السابق